

سقوط القسطنطينية للصليبيين

صنفه بالفرنسية القديمة

روبرت دي كلاري

سقوط القسطنطينية

١- هنا بداية أخبار الذين استولوا على القسطنطينية ،
وسنحدثك فيما يلي عنهم وعن الأسباب التي حدثت لهم للزحف
ضدها ، فقد حدث في الأيام التي كان فيها البابا
أنوسنت (الثالث) يشغل الكرسي الرسولي في روما ، ويتولى فيه
الملك فيليب عرش فرنسا ، كان هناك فيليب آخر هو (أمير
سوابيا) امبراطور ألمانيا ، وكانت السنة سنة ألف ومائتين وثلاث
أو أربع (الصحيح ١٢٠٢) لتجسيد يسوع المسيح التي ظهر فيها
راهب اسمه فولك وكان من سكان نيللي ، وهي أسقفية تابعة
لرئاسة أساقفة باريس ، وكان هذا الراهب رجلا تقيا ورجل دين
مستقيم يتحلّى بالكرم والطيبة ، وقد أخذ يطوف في مختلف البلدان
يدعو الى حمل الصليب ، وقد تبعه أعداد كبيرة من الناس ، ذلك أنه
بلغ من التقوى حدا تجلّى له فيه الرب بآيات باهرة ، وقد جمع هذا
الراهب كميات كبيرة من المال ليأخذها معه الى الأراضى المقدسة
فيما وراء البحار .

وارتدى في هذه الآونة شارة الصليب كل من ثيوت كونت
شامبين ، وبلدوين كونت فلاندرز ، وأخوه هنري ، ولويس كونت
بلوا ، وهيو كونت سانت بول ، وسيمون كونت مونتفرات ، وأخوه
غي .

وسأخبرك الآن بأسماء الأساقفة الذين أسهموا في الحملة ، فقد
كان منهم نيفلون أسقف سواسون ، وكان رجلا ماهرا قادرا على
انجاز أي مهمة تعهد اليه ، يهب الى مساعدة كل من يطلب منه
ذلك ، وكان هناك أيضا فارنية أسقف تروي ، و (كونراد) أسقف
هالبرشتات في ألمانيا ، ويوحنا دي نويون ، الذي اختير فيما بعد
أسقفًا لمدينة عكا ، وكان هناك أيضا راعي دير لوس في

فلاندرز ، وهو واحد من أديرة الرهبان الفرنسيين ، وكان هذا الراعي رجلا مدبرا عظيما والاسقامة والفضل والطيب ، كما وكان هناك أعداد كبيرة أخرى من رعاة الأديرة ورجالات الأكليروس ، من الصعب تذكر أسماءهم جميعا ، لهذا اكتفينا بذكر بعض الأسماء منهم ، وفي الوقت نفسه من غير الممكن بالنسبة لنا تعداد أسماء جميع البارونات الذين حملوا شارة الصليب ، وسأكتفي بتسمية بعضهم فقط ، ومن هؤلاء السيد بيتر اليماني من أمينوا ، وكان فارسا شجاعا يتمتع باللطف والاسقامة ، والسيد أنجودي بوفيز ، وكان أحد أخوة أربعة (ثانيهم روبرت وثالثهم هيو وكان رابعهم راهبا) واشترك أيضا بلدوين دي بوفو ، وماثيودي والنكوت المحامي عن دير بيثون وأخوه كونون ، ويوستاس دي كانتليه ، وأندسودي كايو ، ورينو دي ترتيت ، وويلزدي فريز ، وجيرالد دي مانشيكورت ، ونقولا دي ميلي ، وبلدوين كافاروم ، وهيو دي بوفيه ، وعدد كبير آخر من الفرسان والرجالات الكبار من بين الفلمنكيين والبلدان والأخرى ، ممن لا يمكنني ذكر أسمائهم جميعا .

وأسهم في حمل شارة الصليب جيمس دي أفين ، وأوتودي شامبليت وهو من برغنديا ، وأخوه وليم الذي حوى الجيش عددا كبيرا من رجاله ، وكان هناك أعداد أخرى من برغنديا ليس بإمكانني تعداد أسمائهم جميعا ، واشترك أيضا من شامبيين مارشالها (المؤرخ فلهاردين) وأوجيه دي سسانت شيرون ، وماكيريدي سانت ماينهولد ، وكلامبو دي شاب ، ومينز البرينتي ، وهؤلاء جميعا قدموا من شامبيين .

وكان هناك أيضا محافظ كوربي ، وروبرت دي رونسوي ، وماثيو دي مونتمورنسي ، وكان رجلا فاضلا مستقيما ، وراؤول ألنوي ، وابنه وولتر ، وجيل أولنوي ، وبيتر دي براشو ، وكان فارسا شجاعا بأسلا مستقيما وأخوه هيو ، وهؤلاء جميعا كانوا من فرنسا ومن بوفيزي . وشارك في

الحملة من شارتران : جرفيه دي شاتل وابنه هرفيه ، وأولفرد دي روشفورت ، وبيتر دي ألوست ، وبايين الأرياني ، وبيتر اليماني ، وكان فارسا قويا شجاعا ، وأظهر كثيرا من المقدرة والكفاءة ، وأخوه توماس وكان راهبا ، وكاهن أميين ، ومناسيس من أهل ليل في فلاندرز ، وماثيو دي مونتورنسي ، ومحافظ كوربي .

ومع هؤلاء وجد عدد كبير من الفرسان من فرنسا وفلاندرز وشامبين ، وبرغنديا ، ومن بلدان أخرى كثيرة ليس بالامكان نذكر أسمائهم جميعا ، بيد أنهم كانوا بأجمعهم من الفرسان الشجعان المهرة ، وكان الذين عدناهم لك من أثرياء الناس وأعلامهم مكانة ، وكانوا يحملون الرايات بأيديهم ، هذا ولم نذكر جميع الذين كانوا يحملون الرايات ، وأما الذين قاموا بجليل الانجازات والبطولات الخارقة من الفقراء والأغنياء فكان منهم ممن نستطيع نذكرهم : بيتر دي براشو ، وكان من الأثرياء وقد قام بأعظم أعمال البطولة ، وكذلك أخوه غي ، وأندريه دي ديربواز واللورد بيتر اليماني العظيم ، وماثيو دي مونتورنسي ، وماثيو وارلنكورت ، وبلدوين دي بـورفوار ، وهنري أخو كونت فلاندرز ، وجيمس دي أفين ، وكان هؤلاء من الأثرياء الذين قاموا بأعظم انجازات القتال .

ونذكر من الفقراء : برنارد دي آير ، وبرنارد دي سوبرنجان ، ويوستاس دي هيمونت وأخوه ، وجلبرت دي فيسم ، وويلز دي فريز ، وهيو دي بوفيه ، وروبرت دي رونسوي ، والأرد ماكيرو ، ونقولا دي ميللي ، وغني دي مانشيكورت ، وبلدوين دي هاملينكورت ، ووليم دي ير فيل ، والليوم دي كلاري ، كاهن أمينوا ، وكان رجلا فاضلا ، أنجز أعمالا كثيرة من المهارة والقوة ، والليوم دي سين وويلرام دي فونتين .

ان الذين أتينا على تعداد أسمائهم هم من قام بأعظم أعمال

الشجاعة والمقدرة في القتال ، ومثلهم فعل آخرون كثير كانوا من القوم الصالحين ، من فرسان ورجالة ، إنهم آلاف مؤلفة أعجز عن احصائهم .

٢- وتقاطر للاجتماع كل الذين حملوا شارة الصليب من الأمراء وكبار البارونات ، وبعثوا يطلبون جميع أعيان الناس الذين حملوا شارة الصليب ، حتى اذا التأموا وعقد اجتماعهم أخذوا يتداولون فيما بينهم بحثا عن يقدمونه لرئاستهم وقيادتهم ، وأخيرا عقد اجماعهم على انتخاب الكونت ثيبوت دي شامبين ، فعينه قائدا لهم ، وبعدها فرغوا من تعيينه انفصل كل واحد منهم عن الآخر وكر راجعا الى بلده ، غير أنه ما برح كونت ثيبوت أن طالته يد المنية بعد اختياره بأمد وجيز ، وحين مات خلف للصليبيين ولن ستؤول اليه قيادتهم من بعده وتقدمتهم خمسين ألف قطعة نقدية (ذهبية) ، وأوصى أن ينفق الصليبيون هذا المبلغ وفق أهوائهم .

٣- كما ومات السيد فولك ، فشكل موته خسارة كبيرة وفاجعة عظيمة نزلت بحملة الصليب ، وبعدها عرف حملة الصليب أن مقدمهم كونت شامبين قد توفي وكذلك السيد فولك شعروا بحزن شديد ، وقلقوا وتشربت قلوبهم الحزن والأسى ، فاجتمعوا في سواسون في يوم اتفقوا عليه ، وتداولوا فيما بينهم حول ما ينبغي عليهم القيام به ، والى من سيسوقون زعامتهم ويقدمونه قائدا عليهم ، وأخيرا قر رأيهم على أن يبعثوا الى لومبارديا يطلبون الماركيز دي مونتفرات ، ومن ثم بادروا فبعثوا اليه بعدد من السفراء المناسبين ، ومضى هؤلاء الى لومبارديا بعدما أكملوا استعداداتهم ، والتقوا هناك بالماركيز وأبلغوه أن بارونات فرنسا يبعثون اليه رسالة ، ويتوسلون اليه باسم الرب ليقدم عليهم في يوم بينوه له للتحديث اليهم ، ولدى سماع الماركيز هذه الرسالة تولاه العجب واستببت به الدهشة ، وتساءل لماذا اختصة بارونات فرنسا دون سواه فبعثوا اليه برسلمهم ؟ ثم أخبرهم أنه سيفكر بالموضوع

وسخبرهم غدا بما يراه ويقرره ، هذا وأكرم الماركيز الرسل إكراما عظيما .

٤- وأخبرهم الماركيز في اليوم التالي أنه سيذهب في اليوم المحدد الى سواسون للتداول معهم ، وبناء عليه ودعه الرسل وانصرفوا عائدين ، وقد عرض الماركيز تزويدهم ببعض الخيول ومنحهم بعض المجوهرات ، فشكروه واعتذروا عن أخذ شيء منه .

وبعدما عاد الرسل الى البارونات أعلموهم بالذي فعلوه ، وفي الوقت نفسه حمل الماركيز سلاحه واجتاز جبل مونت جو ، وتابع سفره في فرنسا حتى وصل الى سواسون ، وكان قد أرسل أمامه من يخبر البارونات بمقدمه ، وخف هؤلاء للترحيب به ، وقد أكرموا وفادته غاية الاكرام .

٥- وبعدما وصل الماركيز الى سواسون سأل البارونات عما دفعهم الى طلبه ، وفيما اذا كان صدر عن رأي جماعي منهم ، فأخبروه بالايجاب وقالوا : « لقد بعثنا برسلانا اليك يامولانا ، لأن كونت شامبين قد توفي ، وهو الذي كان قائدنا ، وفعلنا ذلك على أساس أنك أعظم رجل مستقيم نعرفه ، وأنت النبيل الوحيد الذي يمكنه - بمشيئة الرب - أن يحضنا الرأي الصائب فيما يتعلق بخططنا ، ونحن نتوسل اليك جميعا باسم الرب أن تقبل التقدم علينا وتترأسنا ، وأن تحمل شارة الصليب محبة بالرب » ، وتفوه البارونات بهذه الكلمات وهم جاثون أمامه ، وأعلموه أن عليه عدم الاهتمام والخوف من القيام بأعباء هذه المهمة لأنهم سيقدمون له الشطر الأكبر من المال الذي تركه كونت شامبين للصليبيين .

فأعلمهم الماركيز أنه سيفكر بالأمر ويقلب وجوه الرأي حوله ، وبعدما فعل ذلك أخبرهم أنه سيحمل شارة الصليب في سبيل الرب ومحبة به ، ولانقاذ الأراضي الواقعة فيما وراء البحار ، وهنا بادر أسقف سواسون الى مباركة الماركيز ومسحه وناوله

الصليب ، وما أن حمله حتى أعطوه خمسة وعشرين ألف مارك من الأموال التي تركها كونت شامبين للصلبيين .

وبعدما تناول الماركيز الصليب توجه بالخطاب الى البارونات قائلا : « أيها السادة الى أي من بلاد ما وراء البحر ستقصدون ، وأي بلد من بلاد المسلمين تستهدفون؟ » فاجابوه بأنه ليس بودهم التوجه الى سورية لأنهم لن يكونوا هناك قادرين على انجاز شيء نافع ، وهم يفكرون بالتوجه الى مصر وقصد الاسكندرية أو القاهرة قلب الأحداث ، وحيث يأملون أن يكونوا قادرين على انجاز أعمال أعظم خطورة ، وأنه لهذه الغاية قد خططوا لاكتراء اسطول يكون بإمكانه نقلهم جميعا الى مقصدهم ، وأثنى الماركيز على خطتهم الحكيمة هذه ، وأعلمهم بموافقتهم عليها تمام الموافقة ، وأنه بات عليهم ارسال رسل من خيرة فرسانهم الى بيزا ، أو جنوى ، أو البندقية ، فوافق البارونات جميعا على هذا الاقتراح .

٦- واثرا هذا انتخبوا رسلهم ، ووقع اختيارهم بالاجماع على أن تتكون هذه السفارة من الحامي عن بيثون ومارشال شامبين ، وبعدما تم هذا الاختيار تفرق جمعهم ، فعاد الماركيز الى بلده ، وحذا الآخرون حذوه ، وذلك بعدما كلفوا الرسل بالعمل على استئجار اسطول فيه من السفن مايكفي لنقل أربعة آلاف فارس مع عتادهم وكذلك مائة ألف راجل ، وهياً الرسل أنفسهم ، وانطلقوا بدون تأخير فوصلوا أولا الى جنوى ، وهناك شرعوا بالتفاوض مع الجنوبية ، وذلك بعدما أعلموهم بما أرسلوا من أجله ، فأجابهم الجنوبية أن ليس بإمكانهم المساهمة في مشروعهم الذي قدموا من أجله ، وبناء عليه توجهوا الى بيزا ، وتباحثوا مع البيازنة حول المسألة ، فاعتذروا إليهم لعدم توفر السفن الكافية لديهم ، ولهذا أعلموهم أن ليس بإمكانهم المساهمة ، وحينذاك قصد الرسل مدينة البندقية ، فأخبروا بوجهها بما جاءوا بسببه ، وأعلموه أنهم يريدون اكتراء اسطول يمكنه نقل أربعة آلاف فارس مع كامل عتادهم ومائة

ألف من الرجالة ، وبعدهما أوصى الدوج الى هذا المطلب أعلمهم أنه سيفكر بالسئلة ، لأن ماجاءوا يطلبونه يحتاج الى إمعان وتفكير عميق ، ثم دعا اليه كبار أركان المدينة ورجالاتها ، وتحدث معهم وأطلعهم على مطلب الرسل منه ، وبعدهما تداول وأعوانه حول هذا الأمر منفردين ، أرسل وراء الرسل وأخبرهم قائلاً : « أيها السادة نحن مستعدين للاستجابة الى مطلبكم ، وسنعد عمارة بحرية كبيرة اذا رضيتم بدفع مائة ألف قطعة (مارك) نقدية ذهبية لنا ، وليكن معلوما من طرفكم أنني سأمضي معكم برفقة نصف القادرين على حمل السلاح من سكان البندقية ، على أن يكون نصيبنا النصف من جميع الغنائم التي ستقع في أيدينا هناك ، وسنضيف الى هذه العمارة خمسين شينيا نتولى نحن البنادق الانفاق عليها ، وسننقلكم في مدى عام من اليوم الذي نتفق عليه الى أي بلد شئتم ، سواء أكان هذا البلد الاسكندرية أم القاهرة .

٧- وعندما سمع الرسل هذا أجابوه : إن مبلغ المائة ألف مبلغ كبير جدا ، ثم تداولوا وتساوموا حتى تمت الموافقة على دفع مبلغ سبعة وثمانين ألف مارك ، وإثر ذلك أقسم الدوج ورجالات البندقية والرسل على الوفاء بهذا الاتفاق وتنفيذه ، وبناء عليه أعلمهم الدوج أنه يود الحصول على مبلغ خمسة وعشرين ألف مارك كدفعة معجلة ليشرع في أعمال بناء السفن ، فأجابه الرسل بالايجاب ، وطلبوا منه أن يرسل معهم الى فرنسا من يفوضه لاستلام هذا المبلغ وهو خمسة وعشرين ألف مارك ، ثم استأذن الرسل في العودة فبعث معهم الدوج واحدا من أعيان شخصيات البندقية ليقبض المبلغ المتفق عليه .

ثم أمر الدوج أن يظن في جميع أطراف البندقية الا يشغل أي بندقي نفسه بشاغل غير التفرغ للأسهام في بناء السفن ، ففعلوا ونفذوا الذي أمروا به ، وأخذوا يعملون بكل جد في بناء الأسطول ، الذي جاء أعظم اسطول يمكن للعين أن تراه ، وما أن وصل الرسل الى فرنسا حتى عمموا خبر عودتهم ، وهكذا وجهت

الدعوة الى كل البارونات الذين حملوا شارة الصليب للقوم الى كوربي بكل سرعة للاطلاع على ماتم .

٨- وبعدهما تكامل قنوم البارونات أخبرهم الرسل بالذي تم الاتفاق عليه ، وسر البارونات لدى سماعهم الخبر سرورا عظيما ، فأقروا الاتفاق وأكرموا رسل دوج البندقية وأعطوهم بعضا من المال الذي أنخلفه كونت شامبين ، مع بعض ماكان السيد فولك قد جمعه ، زد على هذا دفع كونت فلاندرز بعضا من ماله لاكمال المبلغ المدفوع الى خمسة وعشرين ألف مارك ، وبعدهما تسلم دوج البندقية المبلغ زودهم البارونات بتصريح مرور يضمن سلامة الوصول عائدين الى البندقية .

٩- وأرسلت بعد هذا رسائل الى الصليبيين جميعا في كل مكان بوجوب الانطلاق في عيد الفصح نحو البندقية ، على أن يكونوا في البندقية فيما بين عيد العنصره وشهر آب ، والا يتخلف أحد عن القنوم ، فانصاع الجميع للأوامر ، وهكذا لم يمض عيد الفصح حتى تحركوا جميعا ، وخرج العديد من الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والزوجات والأطفال وهم ينتحبون على فراق أحبائهم الاعزاء عليهم .

١٠ - وبعدهما تقاطرت جموع الحجاج على البندقية ، واجتمعوا هناك ، وشهدوا سفن الاسطول الكبيرة ، وتأملوا منظر الشواني وسفن الحمولة التي أعدت لنقل الخيول ، والبطسات ، سروا كثيرا وعجبوا لما حوته البندقية ودهشوا لثرواتها الهائلة ، وعندما عرفوا أن المدينة لن تستوعبهم جميعا ، اتفقوا فيما بينهم على التحرك للاقامة في جزيرة سانت نقولا التي كان البحر يحيط بها من كل جانب ، وهي واقعة على مسافة فرسخ واحد من البندقية ، وبناء عليه انتقل الحجاج إلى هناك ونصبوا خيامهم ، وأقاموا على أفضل حال توفر لهم .

١١- وبعدما عرف دوج البندقية بوصول جماعات الحجاج جميعا أرسل وراء رجال مدينة البندقية ، وعندما اجتمعوا أمامه أمرهم بأن يستعد نصفهم ويتهيأوا للسفر في رفقة الحجاج في الاسطول ، وعندما سمع البنادقة هذا الأمر سر بعضهم سرورا كبيرا ، غير أن بعضهم الآخر أعلنوا أنه لا يمكنهم السفر ، وتناقشوا بشأن الطريقة التي يمكن فيها اختيار النصف الذي سيرافق الحملة ، وصنعوا أخيرا قرعة على الشكل التالي : وضعوا كرات من الشمع كل اثنتين معا ، وجعلوا في احدهما قطعة من الورق ، ثم ذهبوا الى الشمس وأعطوه الكرات ، فرسم على الأوراق علامة الصليب ، وكان يعطي كل اثنين من البنادقة كرتين لاعلى التعيين ، فمن كان يصيبه الكره التي تحتوي على الورقة المكتوبة توجب عليه الرحيل ومرافقة الاسطول وبهذه الوساطة انشطروا الى قسمين .

١٢- وبعدما قر قرار الحجاج في جزيرة سانت نقولا توجه دوج البندقية وأعيانها اليهم للتداول معهم ، وطالبوهم بسداد بقية ثمن السفن التي اعدوها لنقلهم ، وأخبرهم الدوج أنهم لم يحسنوا صنعا حين بعثوا رسلهم يطلبون بناء اسطول قدرته نقل أربعة آلاف فارس مع عتادهم ومائة ألف راجل بينما لم يحضر من هؤلاء الالاف الأربعة أكثر من ألف فقط ، بسبب سفر الآخرين من مراسي أخرى غير مرسى البندقية ، ثم أنه لم يحضر من المائة ألف من الرجال أكثر من خمسين أيضا أو ستين ، وبناء عليه قال الدوج : « أننا نطلب منكم دفع المبلغ المتفق عليه فيما بيننا » ولدى سماع الصليبيين هذا الطلب أخذوا يتشاورون فيما بينهم ، ثم قر رأيهم على ان يدفع كل فارس أربعة ماركات عن نفسه وأربعة أخرى عن حصانة ، وأن يدفع كل واحد من السيرجانتية ماركين ، والأقل ما يدفعه كل واحد من البقية عن مارك واحد ، وبعدما دفعوا الى البنادقة ما جمعه من المال ، تبين لهم أنهم مايزالون مدينين للبنادقة بخمسين ألف مارك توجب عليهم سدادها .

وغضب الدوج والبنادقة غضبا عظيما عندما شهدوا أن الحجاج لم يدفعوا لهم سوى هذا المبلغ ، ولهذا السبب قال لهم الدوج : « أيها السادة ، لقد الحقتم بنا الضرر ، لأنه منذ أن غادر رسلكم الذين عقدوا معي هذه الاتفاقية ، أصدرت أوامري الى جميع سكان بلادي أن يتخلى كل حرفي عن حرفته وتجارته وأن ينخرط الجميع في العمل لاعداد سفن الاسطول الراسية أمامكم ، ولقد ظل الجميع يعملون بصورة متواصلة مدة عام ونصف العام ، فكانت خسائرهم كبيرة ، ولهذا أطلبكم أنا وأتباعي بدفع المال الذي مازلتم مدينين به لنا ، واذا لم تسددوا هذه المبالغ ليكن بمعلومتكم أنه لن يكون بإمكانكم مغادرة هذه الجزيرة ، فقبل سداد ما هو متوجب عليكم لن تجدوا أحدا يأتيكم بالمؤن والمياه »

ومع هذا فإن الدوج الذي كان رجلا مستقيما وفاضلا لم يتوقف عن تزويدهم بما يكفيهم من ماء وطعام .

١٣- وعندما سمع البارونات والحجاج ما قاله الدوج عظم أساهم ، وتضاعف حزنهم ، وعاودوا مرة أخرى الجمع واستدانوا ما أمكنهم استدانته ممن خيل اليهم أن معهم بعضا من مال ، وسددوا ما جمعوه الى البنادقة ، ومع هذا وجدوا أن ما بقي عليهم سداده مبلغ ستة وثلاثين ألف مارك ، وهنا أخبروا البنادقة أنه قد ضاقت بهم الحال ، وافتقروا وتأزمت أحوال الجيش بسبب ما جمعوه منه من مال وأعلموهم أنه ما عاد بالإمكان جمع المزيد فالذي تبقى يكفي بالكاد لاعالة الجيش .

وعندما أدرك الدوج أنهم بالفعل باتوا عاجزين عن سداد بقية المبلغ ، وأنهم بالواقع بدأوا يعانون من الفقر تكلم الى رجالات قومه وخاطبهم قائلا : « أيها السادة ، اذا تركنا هؤلاء الناس يعودون الى بلدانهم وصمنا الناس الى أبد الأبدن بالخيب والاحتياج ، وأنه لجدير بنا ومفيد أن نذهب اليهم ونخبرهم أننا موافقون على نقلهم بحرا شريطة القبول بتسديد المبلغ المتبقي وهو ستة وثلاثين ألف

مارك من أول الغنائم التي سيحصلون عليها ، ووافق البنادقة على اقتراح الدوج هذا ورحبوا به وتوجه الدوج وصحبه في اليوم التالي الى حيث أقام الحجج ، وتوجه اليهم بالخطاب قائلاً : « أيها السادة ، لقد تداولت أنا وشعبي حول مسألة المبلغ المتبقي واتفقنا على أن نتولى نقلكم على ظهر سفننا اذا أديتم الاستعداد لدفع مبلغ ستة وثلاثين ألف مارك المتبقي لنا بذمتكم من أول غنائم تحصلون عليها في المستقبل ، ووعدتمونا وعداً مؤكداً بذلك » وعندما فهم الصليبيون اقتراح الدوج وخطابه ، انفرجت أساريرهم واستبشروا ، وانكبوا أمام قدمية مسرورين ، ووعده وعداً أكيداً لارجعة فيه أنهم سيفعلون كل ماأشار به واقترحه عليهم ، وأمضوا ليلتهم في غبطة تامة ، ولم يبق أي واحد فقير أو غيره الا وأقام اضاءة كبيرة أمام مقره ، ثم حملوا مشاعل عظيمة شدوها الى أطراف رماحهم وركزوها داخل معسكرهم وخارجة ، حتى بات يخيل للرائي أن المعسكر قد استحال الى شعلة من نار .

١٤- وبعد هذا جاء الدوج وتوجه بالخطاب الى البارونات قائلاً : « ايها السادة ، لقد بتنا الآن على أبواب الشتاء ، ولهذا لايمكننا ركوب البحر ، ولايمكن لأحد أن يلومني على ذلك ، فقد كان بودي نقلكم منذ أمد طويل ، لكن أنتم سببتم التأخير ، والآن أرى أن نستفيد مما نحن فيه ، فعلى مقربة منا مدينة اسمها زارا « لقينا من أهلها الضرر العظيم ، وبودي أنا وشعبي أن نثار منهم ، لو وجدنا الى ذلك سبيلاً ، فاذا وثقتم بي توجهنا اليها ، وأمضينا بها الشتاء حتى حلول عيد الفصح ، واثرتلك نعد الاسطول ونقلع به الى ماوراء البحار في سبيل خدمة الرب ، واعلموا أن زارا بلدة جميلة جداً ، وحافلة بالخيرات والذخائر .

ووافق البارونات ورجال الصليبيين على اقتراح الدوج ، غير أن الجيش بمجمله لم يعرف شيئاً عما دار ، ولم يقف على خبر هذه الخطة سوى أعلى رجالته مرتبه ، وبناء عليه أعدوا عدتهم وهياؤا

سفنهم وأنزلوها الى الماء واستقل كل واحد من علية القوم مع أتباعه سفينة خاصة ، كما أخذ سفينة حمولة لنقل خيوله ، أما الدوج فكان معه خمسون شينيا كلها أعدها على حسابه الخاص ، وطلبت السفينة التي ركبها باللون الأرجواني ونشرت فوقها قلع من القماش الأرجواني الفاخر ، وكان على ظهرها أربعة أبواق فضية كانت تصدح أمامه وعدة طبول تقرر بأصوات عالية شديدة ، وعندما حان وقت الاقلاع أبدى رجال الحملة جميعا ورجال الاكليروس والعلمانيون - صفيهم وكبيرهم - سرورا عظيما لم يشاهد مثله قط ، وكان الاسطول فخمالم ترعين مثله قط ، ولم تسمع بمثله أنن ، وطلب الحجاج من الرهبان ورجال الاكليروس الارتقاء الى أعالي مؤخرات السفن وترتيل الأناشيد في مديح روح القدس ، وأجهش الجميع كبارا وصغارا بالبكاء لشدة انفعالهم وسرورهم من الاعماق .

١٥- وعندما أقلع هذا الاسطول من مرسى البندقية ، واندفعت الشواني والسفن العملاقة وسواها من المراكب الكثيرة، كان المنظر ابهى مراته عين منذ أن أبدع الله الكون ، فقد كان هناك مائة زوج من الأبواق الفضية والنحاسية كلها كانت تصدح وقت الاقلاع ، وكان هناك أيضا عددا كبيرا من الطبول والكوسات وغيرها من الآلات ، مما شكل اعجوبة رائعة ، حتى اذا صاروا في عرض البحر ، ونشرت السفن قلعها ورفعت الرايات على مؤخرة كل سفينة ، وعرضوا رنوكهم خيل للمشاهدين أن البحر بات يضطرب بأجمعه متجاوبا مع فرحة القوم ، وأنه استحال الى شعلة براقه بسبب السفن التي كانت تمخر عبابه ، .

وظلوا سائرين تدفعهم ريح طيبة حتى مدينة اسمها بولا ، فتوقفوا عندها لنيل قسط من الراحة وللتزود بالماء وما لزم من مؤن وذخائر ، وبعدما حملوا ما حصلوا عليه ، أبحروا ثانية ، ولئن كان سرورهم في المرة الماضية واحتفالهم عظيما فان احتفالهم هذه المرة كان مضاعفا ، وسرورهم كان يفوق

الوصف ، حتى أنه استتبت الدهشة بأهل المدينة لما رأوه من فرح ، ولشهد ذلك الاسطول الجبار ومنظره الرائع ، وقالوا محقين : انهم لم يشهدوا قط اسطولا أروع أو أغنى من هذا الاسطول الواقف أمامهم ولم يحدث قط أن تجمع مثله في أي بلد من البلدان

١٦- وتابع الحجاج والبنادقة ابجارهم حتى وصلوا الى مدينة زارا ، ليلة عيد القديس سانت مارتن ، وأصيب سكان المدينة بالهلع لدى رؤيتهم لهذا الاسطول العملاق الذي أخذ يقترب منهم ، فبادروا الى اغلاق أبواب مدينتهم وحملوا سلاحهم للدفاع عن انفسهم بقدر مايمكنهم ، وبعدما عرف الدوج ذلك واقترب الاسطول من المدينة خاطب الدوج بارونات الجيش بقوله : « أيها السادة لقد ألحقت هذه المدينة بي وبشعبي مضار عظيمة وأذى كبيرا ، وأنه لمن نواعي سروري الانتقام منها ، لهذا أرجو مساعدتكم » ، ورحب البارونات ورجالات الجيش بطلبه ووعدوه باسداء العون عن طيب خاطر °

١٧- وبما أن أهل زارا كانوا يعرفون معرفة يقينية درجة كراهية البنادقة لهم ، فقد حصلوا على منشور من روما فيه قرار بحرمان كل من تحلته نفسه بمهاجمتهم أو الحاق الضرر بهم ، وبناء عليه بعثوا بنسخة من هذا المنشور الى الدوج والى الحجاج الذين أرسوا سفنهم أمام المدينة ، وبعدما وصل الرسل الى المعسكر قاموا بتلاوة المنشور أمام الدوج والحجاج ، وبعدما فرغوا من تلاوته واستوعبه الدوج أعلن أنه لن يتراجع عن أخذ ثأره من مدينة زارا ، وأن مامن قوة يمكن أن تثنيه عن عزمه ، حتى وإن

تمثلت بقرار الحرمان البابوي ، وعند ذلك انصرف الرسل ، ورجع الدوج الى مخاطبة البارونات فقال لهم : « أيها السادة ، أرجو أن تتيقنوا تماما أنني لن أتخلى مهما كانت الضغوط عن الانتقام من أهل زارا ، حتى مع وجود قرار البابا بالحرمان » ، ثم طلب من البارونات تقديم العون له ، فاستجابوا جميعا لمطلبه ، ووعدوه بالمساعدة بكل طيبة خاطر ، وذلك باستثناء كل من سسيمون

كونت مونتفورت ، والسيد انجيراند دي بوفيز ، حيث أعلننا أنهما لن يفتريا عملا فيه ما يخالف أوامر البابا والكرسي الرسولي ، وأنهما لهذا لن يرضيهما صدور قرار ضدهما بالحرمان ، وما لبثا أن أعدا عدتهما للرحيل ، فتوجها الى بلاد المجر لقضاء فصل الشتاء هناك .

١٨ - وعندما عرف الدوج أن البارونات على استعداد تام للاسهام معه ، أمر بنصب معداته للهجوم على المدينة ، وقاتلها وشدد عليها الخناق حتى أدرك أهلها أنه لم تبق لديهم قدرة على المقاومة ، وهنا التمسوا الرحمة من الصليبيين وسلموا المدينة للغزاة ، فدخلها الحجاج والبنادقة ، واقتسموها فيما بينهم نصف للحجاج والنصف الآخر للبنادقة .

١٩ - وحدث بعد هذا أن نشب قتال عنيف بين البنادقة وجماعة كبيرة من الحجاج ، دام طوال الليل ثم الى منتصف النهار التالي ، وبلغ القتال شدة عظيمة حتى لم يعد بإمكان الفرسان الفصل بين المتحاربين إلا بعد طول معاناة ، وبعدما فصلوا بينهم أبرموا صلحا مشرفا بين الطرفين ، أزال رواسب سوء النوايا من نفوس الفريقين .

وإثر هذا شرع بارونات ورجال الصليبيين والبنادقة يتداولون بشأن قضية الحرمان البابوي الذي صدر ضدهم ، بسبب مهاجمة مدينة زارا والاستيلاء عليها ، وأخيرا أجمعت الأراء على ارسال وفد الى روما يلتمس صدور قرار بالغفران ، وبالفعل بعثوا الى روما أسقف سواسون والسيد روبرت دي بوفيز ، فحصل هذان المبعوثان من البابا صاحب الكرسي الرسولي على مذكور يتضمن الغفران لجميع الحجاج والبنادقة ، وبعد حصولهما على هذا المذکور بادر الأسقف بالعودة بالسرعة الممكنة ، ولم يعد معه السيد روبرت دي بوفيز لأنه توجه من روما الى بلاد ما وراء البحار مباشرة .

٢٠ - وخلال فترة الشتاء التي أمضاها الصليبيون والبنادقة في زارا راجعوا أوضاعهم ، فوجدوا أنهم أنفقوا انفاقا هائلا ، وأن ما بقي معهم من أموال لن يمكنهم من المضي الى القاهرة أو الاسكندرية أو سورية وأن ما لديهم من مؤن وعتاد غير كاف البتة لدى الذهاب الى هذه البلدان ، فهم قد بددوا تقريبا كل ما ملكوه بسبب طول تأخرهم ويسبب ما سدده من مبالغ مرتفعة اجرة للسفن ، وبناء عليه قالوا : إنهم لن يكون بمقدورهم الذهاب الى هناك ولو ذهبوا فلن يكونوا قادرين على انجاز شيء لعدم توفر المال والعتاد والمؤن للجيش والأعلاف للدواب .

٢١ - وبعدهما اطلع الدوج على سوء أوضاع الحجاج تحدث اليهم قائلا : « إن في بلاد البيزنطيين أراضى عظيمة الخصب ، تنتج كل ما هو طيب ، وعندى إن أفضل خطة يمكن أن نعتمدها هي أن نبحث عن نريعة تسوغ زحفنا الى تلك البلاد لنتزود مما بها من مؤن وأعلاف وغير ذلك مما نحتاجه ، وعند ذلك نمتلك القدرة على استئناف السفر الى ما وراء البحار .

وهنا نهض الماركيز قائلا : « أيها السادة ، كنت في عيد الميلاد الفائت في بلاد مولاي الامبراطور في ألمانيا ، وهناك رأيت شابا ، وهو أخو زوجة امبراطور ألمانيا ، وهذا الشاب هو ألكس بن اسحق « امبراطور القسطنطينية ، الذي سلب منه أخوه امبراطورية القسطنطينية غدرا وخيانة ، فمن استطاع الاستحواذ على هذا الشاب يمكنه بيسر الذهاب الى القسطنطينية ، ومن ثم الحصول على المال والعتاد وغير ذلك ، لأنه الوريث الشرعي .

٢٢ - وسنتخلى الآن مؤقتا عن الكلام عن الحجاج والأسطول لنحدثك عن هذا الشاب ثم عن أبيه الامبراطور اسحق وعن ظهورهما :

وجد من قبل في القسطنطينية امبراطور قاضل مستقيم اسمه

مانويل ، وكان يعد في وقته أكثر المسيحيين مالا وأكرمهم قاطبة ، حيث لم يحدث أن سألته أحد قط مما امتلكه إلا ووصله بمائة مارك ، لا سيما إذا كان السائل من اللاتين من أتباع كنيسة روما ، وأتيحت أمامه السبل للحديث معه ، فهذا ما سمعناه يروى عنه .

٢٣ - وأحب هذا الامبراطور الفرنجة حبا جما ووثق بهم ، وقال في أحد الأيام لقومه ، بعدما بالفوا في تشديد نقده - حسبما اعتادوا - لكرمه العظيم تجاه الفرنجة : اثنان يحق لهما العطاء : مولانا الرب وأنا ، وإذا كنتم تبتغون مني القيام بطرد جميع الفرنجة الذين في خدمتي مع من حولي من اللاتين فاني على استعداد لفعل ذلك ، فسر الأغريق سرورا عظيما وقالوا له : اذا فعلت ذلك تكون يا مولانا قد أنجزت انجازا عظيما ، وسنمحصك الاخلاص في خدمتك ، وبناء عليه أصدر الامبراطور تعليماته الى الفرنجة بالرحيل ، وابتهج الفرنجة لهذا أكثر من أي وقت مضى .

٢٤ - غير أن الامبراطور أعلم الفرنجة خفية هم والذين أبعدهم من خدمته بضرورة الاجتماع به ومحادثته على انفراد ، فاستجابوا لما أمرهم به ، حتى اذا مثلوا في حضرته خاطبهم بقوله : « أيها السادة ، إن قومي لم يدعوني في استقرار وهدوء ، فقد ضغطوا علي حتى أتوقف عن اعطائكم أي شيء ، وأن أخرجكم من بلادي ، وأتمنى أن تصفوا إلي الآن وتفعلوا الذي أمركم به : أخرجوا جميعا - الى مكان سماه لهم - وسأقوم أنا وأتباعي من قومي باللاحاق بكم الى المكان المذكور ، وعند ذلك سأرسل اليكم رسلي أمركم بالرحيل عن الديار ، وعندها تردون علي بالرفض ، وأنكم لن تخرجوا لا من أجلي ولا من أجل شعبي كله ، وزيدوا على ذلك بالتظاهر بالزحف ضدي ، ووقتها سأرى كيف سيكون سلوك قومي » فاستجابوا له ونفذوا كل ما أوصاهم به .

٢٥ - وبعدها مضوا من عنده ، أرسل الامبراطور وراء رجاله جميعا ، ثم قادم حيث ساروا وراء الفرنجة ، حتى اذا باتوا على

مقربة منهم خاطبهم الامبراطور بضرورة الرحيل ومغادرة بلاده
كلية ، فابتهج الذين أشاروا على الملك بنفيهم ابتهاجا عظيما وقالوا
له : « إن لم يغادروا يا مولانا البلاد فأنن لنا بالفتك بهم جميعا »
فأجابهم الامبراطور : « رائع افعلوا ما شئتم » .

ولما وصل رسل الامبراطور الى الفرنجة سلموهم الرسالة بعجرفة
ورعونة كبيرة ، وأنذروهم بضرورة مغادرة البلاد بالحال فرد عليهم
الفرنجة بالرفض وأعلموهم أنهم لن يرحلوا لا من أجل خاطر
الامبراطور ولا من أجل خاطر شعبه ، فانقتل الرسل وعادوا
يحملون رد الفرنجة ، وبناء عليه أمر الامبراطور رجاله بتسليح
أنفسهم للاسهام معه في الهجوم على الفرنجة ، فحملوا أسلحتهم
وزحفوا نحو الفرنجة الذين كانوا قد زحفوا من جانبهم ضده بعدما
رتبوا صفوفهم خير ترتيب ، وعندما رأهم الامبراطور زاحفين ضده
لقتاله قال لجماعته : « أيها السادة ، ينبغي عليكم الآن أن تتسبروا
أموركم بشكل مناسب ، فقد حانت الفرصة أمامكم للانتقام منهم » °

٢٦ - وما أن سمع الأغريق كلام الامبراطور هذا حتى تملكهم
الخوف ورعبوا من اللاتين حين رأوهم زاحفين ضدهم ، وكان
الأغريق يطلقون اسم اللاتين على جميع أتباع كنيسة روما ، وأظهر
اللاتين أفضل الاستعدادات لصد الأغريق ، ولكن عندما شاهد
الأغريق اللاتين وقد انقلبوا ضدهم وزحفوا لقتالهم لانوا بالفرار ،
وتخلوا عن الامبراطور وتركوه لوحده ، ووقتها قال الامبراطور
للفرنجة : « أيها السادة ارجعوا معي وسيكون حباثي لكم أكثر مما
حبيبتكم من قبل » °

٢٧ - وبعد هذا كر الامبراطور عائدا وبيرفقتة الفرنجة ، وبعد
عودته دعا رجاله الأغريق اليه ، وخاطبهم بقوله : « أيها السادة لقد
وضع أمامكم بكل جلاء من الذي يمكن لي الاعتماد عليه ، فلقد
فررتم وتخليتني عني ، وتركتموني وحيدا في وقت توجب عليكم فيه
حمائتي ومساعدتي ، ولو أراد اللاتين وقتها قتلي لمزقوني إربا

إربا ، لهذا أوصيكم بالكف وألا تبلغ القحة والجرأة بأحد منكم حدا يوصله الى السرف الذي وصلتكم اليه حين وجهتم اللوم لي على كرمي نحو الفرنجة وايتاري لهم ، فهذا الايثار الآن لا ريب فيه ، ثم إن ثقتي بهم الآن أعظم من ذي قبل وكذلك اعتمادي عليهم ، وسأخصهم بالعطايا أكثر من ذي قبل ، ولم يتجرأ الأغر يق على مفاتحته بهذا الموضوع بعد هذا التاريخ .

٢٨ - ورزق الامبراطور من زوجته ولدا رائعا جدا ، لهذا خطط له في قرارة نفسه أن يزوجه خير زوجة يمكنه اختيارها والحصول عليها ، وأشار عليه الفرنجة حول ذلك برأي ، فأخذ به بأن كتب الى فيليب (أغسطس) ملك فرنسا ورجاه أن يزوج أخته الى ابنه ، وبعث الامبراطور مانويل بسفارة رفيعة المستوى الى فرنسا ، وضمت السفارة علية القوم ، الذين خرجوا في أجمل زي ، وأروع مركب ، حتى أن العين لم تر قط من هم أكثر غنى منهم ولا أكثر فخامة أو أبهة ، حتى لقد دهش ملك فرنسا وأعوانه وتملكهم العجب لمشهد السفراء الفخم ولروعة موكبهم حين مثلوا في حضرته للأفضاء برسالة الامبراطور ورغبته ، وأخبرهم الملك أنه سيتداول حول الأمر مع باروناته ، ولما تداول معهم حول ذلك الشأن أشاروا عليه بالاستجابة وأن يرسل أخته الى رجل عالي المكانة ، عظيم الثروة كالامبراطور ، وبناء على ذلك أخبر الملك الرسل أنه يرحب بإرسال أخته الى الامبراطور .

٢٩ - وإثر هذا جهز الملك أخته بأرفع جهاز ، وبعث بها رفقه الرسل الى القسطنطينية ، وسار في ركابها عدد كبير من رجاله ، وقد ساروا جميعا بلا توقف حتى وصلوا الى القسطنطينية ، وعندما حلوا بها رحب الامبراطور ترحيبا عظيما بمقدم العروس الشابة ، وفرح بها ، وسر بالذين جاءوا معها .

٣٠ - وفي الوقت الذي بعث فيه الامبراطور رسله لطلب العروس ، بعث بواحد من أقربائه الذين كان يؤثرهم بحبه الكبير واسمه

أندرونيكوس ، الى الطرف الآخر من بلاد ما وراء البحار ، الى أخته ثيودورا ملكة مملكة القدس ، يدعوها للقدوم لحضور حفل زواج ابنه وتتويجه ، واستجابت الملكة وركبت احدى السفن برفقة أندرونيكوس ، وعندما باتت السفينة في عرض البحر ، افتتن بالملكة قرييته وهام بها ، فأغواها ، ثم غصبها نفسها ، وعندما اقتترف ذنبه هذا لم يعد يجرؤ على العودة الى القسطنطينية ، بل أخذ الملكة وتوجه الى قونية ، وهي معه على الرغم من ارادتها ، وهناك عاش بين المسلمين .

٣١ - وعندما عرف الامبراطور مانويل بخيانة أندرونيكوس ، وأنه اختطف اخته الملكة حزن حزنا عظيما ، غير أن حزنه لم يوصله الى حد يمنعه عن اقامة حفل عظيم لتتويج ابنه وعروسه الشابة ، غير أن الأجل لم يكن بعيدا جدا عن الامبراطور مانويل ، حيث لم يلبث طويلا حتى قضى نحبه ، وعندما بلغ نبأ وفاته الى الخائن أندرونيكوس ، أرسل ابنه الذي حل محله ليلتمس منه باسم الرب أن يعفو عنه ، وخادعه حتى أدخل في روعه ويقينه بطلان التهمة التي اتهم بها ، وما لبث الامبراطور الجديد - وكان ما يزال شابا - أن غفر له وعفا عنه وبعث اليه يستقدمه ، وهكذا عاد أندرونيكوس ، ولازم الامبراطور الشاب الذي اتخذه نائبا له في جميع أراضيه ، فتعالى كثيرا واستبد وتعجرف نتيجة لهذا المنصب الذي تسلمه .

٣٢ - ولم يلبث أندرونيكوس سوى أمد قصير حتى بادر الى مباغثة الامبراطور ليلا فاغتاله ومعه أمه أيضا ، وعندما اقتترف ذلك أخذ حجرين كبيرين وربطهما الى رقبتيهما ، ثم رمى بهما في البحر ، ثم بادر فورا فتوح نفسه امبراطورا بالقوة ، وعندما فعل ذلك أمر بالقاء القبض على جميع الذين كان يعرف أنهم ينكرون صحة ولايته ، فسمل عيونهم جميعا ثم قتلهم بعدما مثل بهم أقبح تمثيل ، واستولى أيضا على جميع النساء الجميلات اللاتي وجدهن وغصبهن أنفسهن ، وتزوج أيضا الامبراطورة التي كانت أخت ملك

فرنسا ، واقترب عددا كبيرا من الأثام والرزائل لم يقترب مثلها قط خائن أو سفاح .

وبعدما اقترب هذه الأثام جميعا سأل واحدا من أعوانه المقربين - وكان معينه على اقتراح جميع هذه الموبقات - عما اذا كان يعرف أحدا ما زال على قيد الحياة يعده مفتصبا للعرش الامبراطوري ، فأجابه أنه لا يعرف أحدا سوى ما يحكى عن وجود ثلاثة شبان بالمدينة من أبناء أسرة أسمها « أنجيلوس » هم من علية القوم ، غير أنهم لا مال لديهم بل فقراء معدمون لا حول لهم ولا طول .

٣٣ - وبعدما تيقن الامبراطور من صحة نسب هؤلاء الشبان الثلاثة ، أوعز الى معاونه هذا - وكان لا يقل عنه غدرا وسوءا - أن يمضي اليهم ويلقي القبض عليهم ، ويشنقهم أو يميتهم ميتة أخرى بشعة ، ومضى هذا الرجل لتنفيذ المهمة التي أوكلت اليه ، غير أنه لم يلق القبض إلا على واحد منهم ونجا الآخران ، فسمّل عيني الذي ألقى القبض عليه ، وما لبث هذا أن ترهبين ، أما الأخوان فقد نجيا هربا ، فذهب أحدهما ، واسمه اسحق ، الى اقليم اسمه والاشيا وقصد الآخر انطاكية حيث وقع في أسر المسلمين أثناء احدي غاراتهم على المسيحيين .

٣٤ - وكان الشاب الذي قصد والاشيا ، قد بلغ به العوز حدا عجز فيه عن اعالة نفسه ، فحمله عوزه واملاقه على العودة الى القسطنطينية ، فاستخفى في بيت أرملة في المدينة ، ولم يكن لديه من متاع الدنيا سوى بقل وخادم واحد ، وكان هذا الخادم يكسب قوته من وراء استخدام بقله في تحميله بالشراب وغيره ، وبذلك استطاع هو ومولاه أن يقيما أودهما ، لكن ما لبث خبرهما أن ترامي الى مسامع الامبراطور أندرونيكوس الخائن ، ولدى تيقنه من عودة الشاب الى المدينة ، أوعز مجددا الى معاونه - الذي كان ممقوتا

أشد المقت من قبل الناس جميعا بسبب الآثام التي كان يقتربها كل يوم - أن يمضي فيلقي القبض على اسحق ويشنقه .

وفي أحد الأيام امتطى هذا الرجل ظهر فرسه ، واصطحب معه عددا كبيرا من الأعوان ، وقصد بيت السيدة الفاضلة حيث كان يقيم اسحق ، ولدى وصوله الى البيت ، طلب من الذين كانوا برفقته المناداة على المرأة الصالحة ، وجاءت هذه السيدة الفاضلة وهي مبدية لدهشتها تتساءل عما يريده ، فأمرها باحضار الشاب المتخفي في دارها ، فأجابته هذه السيدة الفاضلة قائلة : « مولاي ، وحق الرب ورحمته ليس بداخل بيتي أحد مختبئ » فأنذرها ثانية بضرورة اظهاره وتهدها إن لم تفعل سيلقي القبض عليهما معا .

٣٥ - ولدى سماع هذه السيدة الصالحة لهذا التهديد من هذا الشيطان الآثم الذي اقترب كثيرا من الآثام ، استبد بها الخوف وعادت نحو الدار ، وجاءت الى الشاب وخاطبته بقولها : « مولاي اسحق المفضل ، أنت ميت لا محالة ، فقد وقف بالباب نائب الامبراطور ، ومعه الكثير من الأعوان الذين قدموا للبحث عنك لالقاء القبض عليك وقتلك » فاشتد خوف هذا الشاب وتولاه اليأس لدى سماعه هذه الأنباء ، ومع هذا برز لهم ، لأنه لم يكن أمامه من سبيل آخر ينجيه من المضي الى لقاء معاون الامبراطور ، ولدى خروجه أخذ معه سيفه وأخفاه تحت سترته ، وخرج من البيت وتوجه نحو النائب وخاطبه بقوله : « ما الذي تبتغيه مني ياسيدي » ؟ فبادر الى الرد عليه بفجاجة ورعونة قائلا : « أيها النذل الدنس ، انظر فهؤلاء ماضون لشنقك » .

٣٦ - وهنا أدرك اسحق أنه لا مفر أمامه من المضي معهم شاء أم أبى ، لهذا رغب في أن ينتقم لنفسه من أي واحد منهم ، ولذلك اقترب من نائب الامبراطور حتى التصق به ، ثم علاه بسيفه وضربه على رأسه ففلقه ، ووصلت الضربة حتى أسنانه .

٣٧ - وعندما أبصر أعوان النائب ما حل به حيث فتك به الشاب

اسحق فروا هاربين ، واذ ذاك أخذ الشاب بمقود فرس النائب الذي قتله ، وامطاه وسيفه ما زال بيده يقطر دما ، وانطلق مبادرا نحو كنيسة آيا صوفيا ، وقام اثناء سوقه نحو الكنيسة بالهتاف بين الناس معلنا ما فعله ، واكتظت الشوارع بالناس ودهشوا للضجة التي تصاعدت أصواتها ، وأخذ الشاب يستنجدهم قائلا : « أيها السادة ، أستحلفكم بحق الرب ورحمته ألا تقتلوني ، فقد قتلت الشيطان الأثم الذي جلل بالعار المشين أهل هذه المدينة وسواهم » وما أن دخل كنيسة آيا صوفيا حتى ارتقى المذبح واحتضن الصليب رغبة منه في صون حياته ، وتعالى الجلبة والضوضاء في المدينة ، وانتشر في أرجائها شرقا وغربا بأن اسحق قد قتل الشيطان الأثم ، ولدى سماع أهل المدينة بذلك ، استبشروا وعلت وجوههم الفرحة وتقاطروا سعيا من كل مكان نحو كنيسة آيا صوفيا لرؤية الشاب الذي قام بهذا العمل الشجاع ، وبعدما تكامل الحشد في الكنيسة شرع كل واحد يقول للآخر : « ما أروع هذا الشاب الذي أمكنه القيام بهذا الانجاز الهائل ، ونفذ هذا العمل العظيم » وما لبث الأغريق أن أخذوا يتحدثون فيما بينهم ويقولون : « تعالوا بنا نسلك السلوك الأقوم ، فنتوج هذا الشاب امبراطورا » ، وانعقد اجماعهم أخيرا على هذا التتويج ، ومن ثم بعثوا وراء البطريرك ، وكان في قصره ، وطلبوا منه الحضور لتتويج امبراطور جديد اختاروه بأنفسهم .

وعندما سمع البطريرك طلبهم ، بين لهم أنه لن يفعل شيئا من هذا القبيل ، وأخذ يقول لهم : « أيها السادة ، إنكم تقتربون منكرا عظيما ، الأفضل لكم الاقلاع عنه والسكون ، فأنتم بعملكم هذا تنأون بأنفسكم عن جادة الصواب ، فأنا اذا ما توجهت قتلتني الامبراطور أندرونيكوس وجعلني أشلاء » ، فأجابه رجال الأغريق أنه لا بد من تتويجه واذا لم يفعل ما أمر به فسيقتلونه ، وانصاع البطريرك ، وغادر قصره رغما عنه ، ومضى الى الكنيسة مذعورا ، وهناك كان اسحق في رداء رث وثياب بالية ، وارتدى البطريرك ثيابه الكهنوتية وتوج اسحق رغبة منه أو رهبة ، لقد توج اسحق هذا الذي

كان الامبراطور أندرونيكوس قد بعث بنائبه وأعوانه في هذا اليوم للقبض عليه وقتله .

وبعدما فرغ البطريك من تتويج اسحق انتشر الخبر في أرجاء المدينة حتى وصل الى مسامع الامبراطور أندرونيكوس وعلم هذا الامبراطور أيضا بمقتل معاونه ، فأنكر أولا ما حكي له ، فبعث برسلك الى المدينة يستجلون له حقيقة الأمر ، وعندما وصل هؤلاء الى المدينة تأكدوا من صحة الخبر ، فعادوا الى الامبراطور وقالوا له : « مولانا إن كل ما قيل لك وحكي صحيح » .

وعندما تيقن الامبراطور أندرونيكوس من حقيقة ما حدث ، انبعث وبأمر بالتوجه نحو كنيسة أيا صوفيا ومعه حشد من أعوانه ، وبخلى الى الكنيسة من بهليز خاص كان يصل بين الكنيسة وقصره ، وبعدما نخل الى قلبها صعد الى شرفاتها ، فرأى الرجل الذي توجهه ، وما أن راه حتى اشتد غضبه ، فطلب من واحد من رجاله قوسا ونشابا ، وأخذ أندرونيكوس القوس ، ووضع السهم في كبه وفوقه باتجاه اسحق لرميه وقتله ، ولكن وتر القوس انقطع ، فشعر بالاحباط - وتولاه الرعب واليأس فعاد الى قصره حيث أمر رجاله بالمبادرة الى اغلاق الأبواب وتسليح أنفسهم والدفاع عن القصر ففعلوا ما أمروا به .

٣٩- لقد أمر بذلك لكنه قام بالوقت نفسه بالتوجه الى باب سري خلفي ، وهرب من القصر ، واستقل هو وعدد من أعوانه مركبا كبيرا ، وتوجه الى عرض البحر ، فقد كان يخشى من الوقوع بأسر أهالي المدينة ، وفي الوقت نفسه اصطحب سكان المدينة الامبراطور الجديد ، وتوجهوا نحو القصر ، فاستولوا عليه بالقوة ، وأدخلوا اليه الامبراطور اسحق ، وأجلسوه على عرش القسطنطينية ، وبعدما جلس أدوا له يمين الولاة باعتباره الامبراطور المقدس .

٤- وسر الامبراطور اسحق سرورا عظيما ، لما حظي به من شرف وظفر بعون من الرب في ذلك اليوم ، وهنا قال للناس : « أيها السادة تأملوا ما أضفاه علي الرب من شرف عظيم ، اذ هيا لي السبل لأتوج امبراطورا في اليوم نفسه الذي كانوا ماضين فيه لقتلي ، ولهذا أنا متنازل لكم عن جميع الثروات والنخائر الموجودة في هذا القصر اعترافا مني بالجميل والفضل الذي طوقتم به عنقي » وعندما سمع الناس خطاب الامبراطور سروا كثيرا بالمنحة العظيمة التي أعطاهم الامبراطور إياها ، وتوجهوا نحو الخزانة ، فوجدوا فيها كميات عجيبة من الذهب والفضة فتقاسموا ذلك فيما بينهم .

٤١- وحدث في الليلة نفسها التي هرب فيها أندرونيكوس ، أن ثار البحر وماج بفعل عاصفة هوجاء ، وريح عاتية ، وكثير الرعد والبرق حتى ضل أندرونيكوس وأصحابه ولم يعودوا يعرفون الى أين يتجهون ، وردتهم العاصفة والرياح الى القسطنطينية ، دون أن يدركوا أنهم قد عادوا اليها ، وعندما رأوا أن مركبهم قد جنح الى الشاطئ ، وأنه ما عاد بإمكانهم الابحار بأي اتجاه ، وهنا قال أندرونيكوس لرجاله : « أيها السادة بؤدي لو تخبروني أين نحن الآن » فنظروا وتمعدوا فيما حولهم فعرفوا لتوهم أنهم قد أبوا الى القسطنطينية ، فلما سمع أندرونيكوس ما أخبروه به سيطر عليه الأسى والحيرة وبات لايعرف ماذا يفعل ، وقال لرجاله : « أيها السادة استحلّفكم باسم الرب . أن تذهبوا بي الى مكان قصي ، بعيد عن هنا ، فردوا عليه أنهم غير قادرين على متابعة السفر ولو قطعت أعناقهم .

وبعدما أدركوا عجزهم عن مغادرة ذلك المكان ، أخذوا الامبراطور أندرونيكوس وحملوه معهم الى نزل كان هناك وأخفوه خلف جدار الخمرة ، ونظر الى رجاله صاحب الخان ومعه زوجته وحدقا بهم ، وبعد طول تمعن أيقنا تماما أنهم رجال الامبراطور أندرونيكوس ، وبعد وقت قصير حدث أن ذهب زوجة صاحب النزل

لتدفق جزار الخمرة ، فرات أندرونيكوس قابعا وراءها في زية الامبراطوري ، فعرفته على الفور ، فأسرعت بالعونة الى زوجها وقالت : « مولاي أن أندرونيكوس الامبراطور قابع هناك » ، وما أن سمع صاحب النزل خبرها حتى بادر فأرسل رسولا من عنده الى واحد من علية القوم كان يسكن على مقربة منه في قصر كبير ، وكان أندرونيكوس - قد قتل والده ، واغتصب زوجته ، وعندما وصل الرسول الى القصر قال لصاحبه : إن أندرونيكوس موجود في النزل القريب ، وحنده له ، وعندما سمع هذا الرجل بوجود أندرونيكوس في النزل ، اعتلاه البشر وسر سرورا عظيما ، وبادر نحو النزل ومعه فئة من أعوانه ، فاعتقل أندرونيكوس وحمله الى قصره .

٤٢- وفي صباح اليوم التالي ، حمل الرجل الامبراطور أندرونيكوس الى القصر الامبراطوري ، وقدمه الى الامبراطور اسحق ، الذي بادر الى سؤاله : لماذا غدرت يا أندرونيكوس بمولاك الامبراطور مانويل ، ثم لماذا قتلت زوجته واغتلت ابنه ، وما هو السبب الذي جعلك تتلذذ في اقتراف الكثير من الآثام في حق الذين رأوا الشر في اغتصابك للعرش الامبراطوري ، وما الذي دفعك الى اعتقالي ؟ فرد عليه أندرونيكوس : « اسكت ، فلن أتنازل للرد عليك ، وعندما سمع الامبراطور اسحق هذا وعرف أن أندرونيكوس يترفع عن الرد عليه ، أرسل وراءه عدد كبير من رجالات المدينة ، وعندما مثلوا أمامه توجه بالخطاب اليهم قائلا : « أيها الساسة ، هونا أندرونيكوس الذي اقتترف عدا كبيرا من الآثام بحقكم وحق غيركم ، ويخيل لي أنني أحقق العدل فيه وفق رغباتكم جميعا بتسليمه اليكم لتفعلوا به الذي تريدوه .

٤٣- ولدى سماع رجال المدينة ذلك شعروا بالفرح ، واخذوا أندرونيكوس ، فاقترح بعضهم حرقه حيا ، ورأى آخرون رميه في قدر كبير به ماء يفتلي ليتألم كثيرا ، وفضل بعضهم الآخر سحله في الطرقات ، وهكذا اختلفوا ولم تتحد أفكارهم حول نوعية الموت الذي سينهون به حياة أندرونيكوس ، وأخيرا واف رجل حكيم بينهم

وقال : « أيها السادة اصغفوا الي فأنا سأقترح عليكم أفضل وسيلة للانتقام منه ، في داري أتان من أخس الحيوانات وأبغضها للذئس ، دعونا نأخذ أندرونيكوس ، ونجرده من ثيابه ، ونربطه على ظهر الدابة بالقلوب حيث يمسك بيديه نذبيها ، ثم نطوف به في أطراف المدينة قاصيها ودانيها ، ووقتها سيكون بإمكان كل من أذاه أندرونيكوس من الرجال والنساء الانتقام منه أبشع انتقام .

٤٤- ووافق الجميع على هذا الاقتراح ، وأخذوا أندرونيكوس وشدوه وأركبوه وفق اقتراح ذلك الرجل ، وفيما هم يطوفون به في المدينة ، أخذ كل من اقترب بحقه إثمًا من الآثام يقذفونه ويلطفونه ويضربونه : منهم من صدغه ومنهم طعنه بفنجر أو مدية ومنهم من تناوله بضربة من سيفه ، وكلهم مابين قائل له : « لقد شذقت أبي ، ولخر « لقد اغتصبت زوجتي قهرا ، وأما النساء اللواتي اغتصب بناتهن وفجر بهم ، فقد شدينه من لحيته نذفا وضربا وشتما وتقريعا ، وحتى اذا وصلوا به الي الطرف الآخر من المدينة لم يكن قد بقي منه أثر من آثار الحياة ، وأثر ذلك القوا بعظامه بين القاذورات ، وبهذه الوسيلة المحكمة ثأروا لأنفسهم من هذا الفاسق .

٤٥- وبعدها صار اسحق امبراطورا رسم فوق مداخل الكنائس كيف جعلت منه احدى المعجزات امبراطورا ، وقد وفت سيدتنا العذراء على طرفه وواف على الطرف الآخر مولانا يسوع المسيح ، وهما يضعان التاج على رأسه وصوروا أيضا ملاكا يقطع وتر القوس الذي استهدف أندرونيكوس رميه به لقتله ، هذا وعرف بيت الامبراطور اسحق باسم « أنجيلوس »

٤٦- وبعد هذا اشتاق الامبراطور اسحق شوقا شديدا الي اخيه الذي كان أسيرا عند المسلمين وأراد رؤيته ، فوقع اختياره على عدد من الرجال بعثهم يبحثون عنه ، وفتشوا عنه وفتقصوا حتى عرفوا مكان سجنه ، فذهبوا الي هناك ، وسألوا المسلمين عنه ، وكان قد

ترامى الى اسماعهم أن سجينهم أخو الامبراطور الجديد في القسطنطينية ، فاشتطوا في مفاداته ، وطالبوا بمبلغ جسيم فتمت الاستجابة لمطالبهم بالذهب والفضة ، فحصلوا عليه فحملوه معهم عائنين الى القسطنطينية .

وسر الامبراطور اسحق كثيرا برؤية أخيه حرا طليقا ، فأكرمه وحباه ، وبدوره فرح هذا الأخ كثيرا حين عرف أن أخاه قد بات الامبراطور ، وأنه استحوذ على العرش بقدرته وشجاعته .

٤٧- وكان اسم هذا الشاب الكسيوس ، ولم تمض غير فترة قصيرة حتى رسمه أخوه الامبراطور نائبا له ، وفوض اليه التصرف بجميع اراضيه ، فامتلا كبرياء بهذه النيابة ، حتى عمت هيبتة الامبراطورية بأكملها ، وصار الناس يخافونه لحب الامبراطور له واقربته منه .

وحدث بعد بعض الوقت أن توجه الامبراطور في أحد الايام الى الصيد في احدى الغابات ، فما كان من أخيه الكسيوس ، الا أن قصد هو الآخر الغابة حيث كان أخوه الامبراطور ، وانقض عليه غدرا فاقتلع عينيه ، وبعد ما فرغ من خيانتة القاه في السجن بطريقة خفي خبرها على الناس جميعا ، ثم رجع الى القسطنطينية وموه على الناس أن أخاه الامبراطور قد توفي ، ومن ثم توج نفسه امبراطورا .

وعندما رأى المكلف بحراسة ابن الامبراطور اسحق ، أن عمه الكسيوس قد غدر بالامبراطور أبي الطفل وخانه خشي أن يلحق الطفل بأبيه ، فلم يكن منه الا أن حملة بعيدا ، وبعث به الى أخته في المانيا ، فقد كانت زوجة امبراطور المانيا (فيليب أمير سوايبيا) وكان هذا الطفل هو الوريث الشرعي للعرش الامبراطوري وأحق من عمه به .

٤٨- والآن وقد سمعت كيف قام اسحق وصار امبراطورا ، ثم كيف ذهب ابنه الى ألمانيا ، وهذا الابن هو الذي سيرسل الصليبيون والبنادقة في طلبه استجابة لرأي مقدمهم الماركيز دي مونتفرات .

٤٩- وسأدفرغ الآن لأقص عليكم حديث هذا الشاب والصليبيين ، وكيف بعث الصليبيون في طلبه ، ومن ثم كيف قصدوا القسطنطينية لغزوها ، فبعدها أفهم الماركيز الحجاج والبنادقة أن من يكون هذا الشاب - الذي تحدثنا عنه الآن - لديه فسيدج مايسوغ نهابه الى القسطنطينية والاستيلاء عليها والحصول على ما بها من نخائر ، بعد هذا بعث الصليبيون باثنين من خيرة فرسانهم الى ألمانيا وذلك بعدما جهزوا خير جهاز ، وكلفاهم بجلب الامير الشاب ، وحملوهما اليه خطابا أخبروه به أنهم سيساعدونه على استرداد حقوقه .

ولما وصل الفارسان الى بلاط امبراطور ألمانيا ، حيث كان الشاب ، اجتمعا به وأبلغاه بالرسالة التي بعث بها الصليبيون اليه ، وبعدها سمع الشاب نص الرسالة وفهم حتى العرض المرسل اليه من بارونات الصليبيين ، استبشر وسر سرورا عظيما ، ورحب بالعرض كثيرا ، وأكرم وفادة الفارسين وأخبرهما أنه سيتداول حول الأمر مع زوج أخته الامبراطور ، وأثر هذا قال له الامبراطور - بعدما اطلع على نص العرض - هذه فرصة مواتية ، وشجعه وأيد فكرة التحاقه بالصليبيين ، وأوضح له أنه لن يكون بمكنته أبدا استرداد شيء من ميراثه بغير معونة الرب ، ومساعدة الصليبيين ، وما أن اقتنع الشاب أن الامبراطور قد محضه النصح حتى جهز نفسه حسب الامكان ، وانطلق برفقة الفارسين .

٥- وقبل عودة الفارسين الى زارا وبرفقةتهما الشاب ، كان الاسطول قد قصد جزيرة كورفو ، وذلك بعد انقضاء عيد الفصح ، وخلاف في زارا مركبين في انتظار الفارسين والشاب ، وفي

كورفو مكث الحجاج حتى يوم وصول الشباب والفارسيين ذلك انه عندما وصل هؤلاء الى زارا وجدوا المركبين اللذين تركهما الصليبيون ، فصعدوا اليهما ، وأقلعوا منطلقين حتى جزيرة كورفو حيث كان الاسطول راسيا ، ولدى مشاهدة علية القوم الشاب قادما بادروا الى استقباله بكل حفاوة وحيوه وبجلوه الى ابعد الحدود ، وعندما رأى الشاب ترحاب علية القوم به ورعايتهم وتبجيلهم له ، وشهد ايضا العمارة البحرية العملاقة تولاها السرور بشكل مفرط ، ثم قصده الماركيز وقاده الى خيمته .

٥١ - وما ان استقر الشباب في سرادق الماركيز حتى توافد عليه كبار البارونات مع دوج البندقية ، وتحدثوا معه حول عدة امور ، واخيرا افضى بهم الحديث الى ان سألوه عما سيقدمه لهم ان هم نصبوه امبراطورا على القسطنطينية ، وتوجوه بها ، فاعلمهم انه سيلبي كل مطلب من مطالبهم ، واثّر ذلك اعلموه بما يريدون وتداولوا معه حتى اتفقوا على انه سيدفع للجيش مائتي الف مارك ، وسيزود الاسطول على حسابه الخاص بما يكفيه من مؤن لمدة عام كامل ، وسيمضي برفقةهم على رأس جميع قواته الى بلاد وراء البحار ، وسيودع في بلاد ماوراء البحار عشرة الاف مقاتل ينفق عليهم من ماله الخاص طوال حياته ، كما انه سيتكفل بتموين جميع من سيفادرون القسطنطينية الى بلاد ماوراء البحار .

٥٢ - واثّر ذلك تم استدعاء بارونات الحملة جميعا مع البنادقة الى اجتماع عام ، وبعدها اكتمل الحضور نهض دوج البندقية وخاطبهم قائلا : « ايها السادة لقد توفّر لنا أفضل مسوغ للتوجه الى القسطنطينية - اذا وافقتم - فوريت عرشها الشرعي معنا » .

ووجدت جماعة لم توافق مطلقا على التوجه الى القسطنطينية وقال أفرادها : « عجبا ، وما الذي سنفعله في القسطنطينية ؟ نحن علينا أداء حجبنا ، وقد وضعنا خططنا للمضي الى الاسكندرية او

القاهرة ، فضلا عن هذا لقد اتفقنا أن يبقى الاسطول معنا عام واحد فقط وهاهو ذا قد انقضى من السنة نصفها .

فحاججهم الآخرون بقولهم : وماجدوى سفرنا الى الاسكندرية أو القاهرة ونحن لانملك مايكفينا ويكفي رحلتنا من مال وعتاد ومؤن ؟ وإنه لخير لنا وأنفج - قبل السفر الى هناك - أن نبحت عن ذريعة مسوغة توفر لنا العون والمال ، فذاك أجدى لنا وأرفع من أن نمضي الآن الى هناك لدموت جوعا ، فها نحن قد عثرنا على وسيلة تمكنا من انجاز الكثير ، سيما وأن - الشاب - يعرض علينا مرافقتنا هو وقواته مع تمويل اسطولنا لمدة سنة أخرى ، كل ذلك على نفقته الخاصة .

وكان الماركيز مونتفرات أعظم البارونات حماسا في حمل القوم على قصد القسطنطينية ، فقد أراد الثأر لنفسه لاهانة قد ألحقها به الامبراطور المترجع على العرش الامبراطوري في القسطنطينية .

٥٣- وسندع الآن جانبا الحديث عن الاسطول وسأروي لك حكاية الالهانة التي كان الماركيز حاقدا بسببها على القسطنطينية :

كان الماركيز كونراد أخو الماركيز مونتفرات قد حمل شارة الصليب ، ثم قدم الى القسطنطينية على نية التوجه الى بلاد ماوراء البحار ، وكان برفقته مـركبين ، وفي القسطنطينية التقى بالامبراطور وتحدث اليه ، ورحب به الامبراطور وحباه ، وحدث انذاك أن كان هناك واحدا من اعيان عاصمة الامبراطورية قد تمرد على الامبراطور وحاصره في مدينة القسطنطينية ومنعه من مغادرتها ، وعندما تعرف الماركيز كونراد الى هذا الوضع سأل الامبراطور : كيف حدث أن تمكن هذا الرجل من محاصرته ، وكيف لم يتجراً هو ذاته على الخروج من المدينة لحربه ، فأعلمه الامبراطور انه ليس لدى شعبه بأس أو قدرة ، وهذا هو السبب الذي جعله لايرغب في النهوض الى حربه .

٥٤ - وعندما سمع الماركيز هذا البيان أعلمه أنه على استعداد لم يد العون له اذا ما رغب بذلك ، فأخبره الامبراطور أنه بحاجة ماسة للعون ، وأنه سيظل دوما شاكرا للماركيز ، وهنا طلب منه الماركيز جمع كل اللاتين في القسطنطينية ، بغية قيادتهم في طليعة جيش يسير به الامبراطور مع رجاله من بعده ، وبناء عليه جمع الامبراطور اللاتين جميعا ، ثم أمرهم بالتجهز وحمل أسلحتهم ، وجهاز الماركيز بالوقت نفسه رجاله ، وعندما اكتمل تسليم اللاتين ، قاد الماركيز هؤلاء مع رجاله في صفوف منتظمة ، وسار الامبراطور ورجالهم وزحفوا جميعا وفق الخطة المرسومة .

٥٥ - وما أن أصبح الماركيز وزجاله خارج أبواب المدينة حتى عرف براناس الذي كان يحاصر الامبراطور بذلك ، وهنا زحف مع أعوانه بهدف صد الماركيز الباسل وقاتله ، وعندما بات على غلوة من جيش الماركيز اندفع مهاجما إياه ، وهنا ماكاد يلحمه مقبلا نحوه حتى بادره فاندفع نحوه وضربه بين عينيه ضربة أردته قتيلًا ، ثم راح هو وأعوانه يعملون الضرب ذات اليمين وذات الشمال في صفوف عدوهم حتى صرعوا عددا كبيرا منهم ، هذا وماكاد رجال براناس يرون مصرع قائدهم ، حتى أداروا ظهرهم ولادوا بالفرار .

٥٦ - وعمد الامبراطور إلى خيانة الماركيز ، وأغلق الباب خلفه ، لكنه عندما شاهد الأعداء يلوذون بالفرار ففتح الأبواب ، وأنطلق على رأس قواته جميعا لمطاردة الهاربين ، وحصل الماركيز والنين معه على غنائم كبيرة من الخيول وسواها ، وبهذه الصورة انتقم الماركيز من عدو الامبراطور الذي كان يحاصره ، وبعد نيل هذا النصر عاد المنتصرون إلى القسطنطينية ، وبخلوها وعلى رأسهم الامبراطور والماركيز ، وعندما استقروا بها وضعوا أسلحتهم ، وهنا قدم الامبراطور شكره العظيم الصادق للماركيز الذي انتقم له من عدوه وفرج عنه ، وهناك سأل الماركيز الامبراطور

- ٤٥٩٢ -

عن السبب الذي دعاه إلى اغلاق الأبواب خلفه ، فقال له
الامبراطور : أتسأل عن هذا الآن ؟ فأجابه الماركيز : نعم بحق
الرب ! ٠٠٠

٥٧ - ولم يلبث الامبراطور طويل وقت حتى حاك خيانة مؤامرة
كبرى ، أراد من خلالها التخلص من الماركيز بقتله ، وعلم شيخ كبير
بتفاصيل المؤامرة ، فأشفق على الماركيز ، لهذا اتصل به وقال له :
سيدي الماركيز يجب بحق الرب ان ترحل عن هذه المدينة فلو مكثت
فيها ثلاثة ايام أخرى بعد يومنا هذا لا يمكن الفتك بك من قبل
الامبراطور ورجاله الخونة ، حيث حاكوا مؤامرة كبيرة للتخلص
منك ، وعندما سمع الماركيز هذا الخبر اعتراه الحزن حزنا
شديدا ، ثم غادر المدينة فورا في تلك الليلة نفسها ، فقد جهز مركبين
للرحيل وأقلع بهما قبل فجر اليوم الجديد ، وتابع سفره حتى
صور .

٥٨ - وكانت بلاد مملكة القدس قد ضاعت قبل هذه الأحداث ولم
يبق منها غير مينيستي صور وعسقلان ، وكان قبل ضياع الناحية
كلها قد مات (عموري) ملك القدس ، وكان لهذا الملك ابنتان
تزوجت كبراهما من الفارس غي دي لورنغان دي بواتو ، وهي
التي آلت اليها مملكة القدس ، وتزوجت الثانية من اللورد
همفري ، صاحب شقيف أرنون .

٥٩ - وكان قد حدث في واحد من الأيام الخالية أن اجتمع جميع
بارونات الأرض ومعهم (ريموند الثالث) كونت طرابلس ومقدما
الفرسان الداوية والاسبتارية ، اجتمعوا في الهيكل في القدس
وتداولوا حول ضرورة فصل اللورد غي عن زوجته بسبب صيرورة
تاج المملكة اليها ، واستهدفوا تزويجها من رجل آخر مناسب أكثر
من غي ليتولى الملك معها ، ونجحوا في التفريق بينهما ، غير أنهم
اختلفوا حول الشخص الذي سيزوجها منه ، واتفقوا أخيرا على
ترك حرية الاختيار لها ، وهكذا ناولوها التاج لتمنحه بدورها للذي

تريده شريكا لها بالملك ، ثم اجتمع البارونات والفرسان الداوية والاسبطارية ثانية ، وفي يوم آخر ، وحضر الاجتماع (ريموند الثالث) كونت طرابلس ، والذي كان أفضل فرسان المملكة ، وكان يخيل اليه أن الملكة سيقع اختيارها عليه ليتزوجها ومن ثم تعطيه التاج ، وكان اللورد غي بين الحضور ايضا ، وهو الذي كان زوج الملكة من قبل .

وبعدما التأم جمعهم تناولت الملكة التاج بين يديها ، ثم أخذت تمر بنظرها على جميع الحضور حتى أبصرت غي الذي كان زوجها ، فخطت نحوه ووضعت التاج على رأسه وبذلك أصبح اللورد غي ملكا ، وعندما رأى كونت طرابلس ما حدث حنق عليها بشدة ، وغادر المكان فورا وتوجه الى امارته في طرابلس وهو يتقد غضبا .

٦٠- وبعد هذا الحادث بأمد قصير تمكن المسلمون من أسر غي في حرب خاضها ضدهم وهزم فيها مع جميع رجاله ، وضاعت الأرض باستثناء صيدا وعسقلان ، وبعدما صارت الأرض كلها بيدني صلاح الدين استدعى اليه ملك القدس المأسور ليه ووعده أنه سيطلق سراحه وسراح مجموعة كبيرة من رجاله اذا تمكن من اقناع القائمين على الدفاع عن عسقلان على تسليمه اياها ، واستجاب الملك وطلب منه أخذه الى عسقلان للعمل على تسليمها له ، وتوجه صلاح الدين وبعدما أوضح لهم أنه راغب بذلك استجاب أهلها وسلموها له .

٦١- وبعدما آلت المدينة الى صلاح الدين اطلق سراح الملك غي مع جماعة من قومه ، ثم رحله الى الأراضي المسيحية ، وبعد هذا بوقت قصير توجه الملك غي ومن معه الى صور .

وقبل ان يتخلص الملك غي من أسره ويقوم بما قام به ، كان الماركيز قد استولى على مدينة صور ، ووقف الى جانبه الجنوبية

وغيرهم من الناس وأدوا له يمين الولاء ، وأقسموا له على الآثار المقدسة أن يخولوا اليه جميع السلطات مع اعتباره سيدهم مقابل تقديم العون لهم في الدفاع عن المدينة ، ووجد الماركيز أن مدينة صور تعاني من الغلاء الفاحش ، الى درجة أن مكيال القمح قد بيع بمائة بيزنته ، مع أنه كان لايساوي في أميين أكثر ستيه ونصف .

٦٢- وعندما رحل الملك (غي) الى صور ، نادى جنده على من كان بها قائلين : « افتحوا الابواب ، افتحوها ، وانظروا فيها هو الملك قد جاء » ، فمنعهم من كان بها من الدخول اليها ، فقال الملك مندهشا : كيف هذا اولست ملك هذه البلاد وصاحبها ؟ ورد عليه الماركيز : « لاوهق الرب انت لم تعد ملكها ولاصاحبها ولن تستطيع الدخول اليها لانك لطخت كل شيء بالعار ، وأضعت الارض كلها ، زد على هذا إن الغلاء شديد جدا ، ولو دخلت أنت ورجالك مات الناس جميعا جوعا ، وانه لأقل خسارة ان تموت أنت ورجالك ، فهنا لايمهم كثيرا ، لكن المهم الان نهلك نحن الذين في المدينة وتهلك المدينة معنا .

٦٣ - وعندما وجد الملك غي نفسه أنه لن يستطيع الدخول الى صور ، ارتحل ويمم ومن معه شطر مدينة عكا حيث اتخذوا لأنفسهم معسكرا أمامها وهصنوه وظلوا فيه حتى قدم ملكا فرنسا وانكلترا حيث وجداه هناك.

وفي أثناء مرابطة الماركيز في صور وعيشه وسط الغلاء الشديد ، فرح الرب عنه وعن رجاله ، حيث قدم تاجر ومعه مركب مشحون بالقمح ، وقد باعهم المكيال الواحد بعشرة بيزنتات بعدما كان بمائة ، وقد فرح الماركيز كثيرا وشعر بالراحة هو ومن معه بالمدينة ، فقد توفر القمح ويات معروضا بالأسواق للبيع.

٦٤ - وبعد هذا بوقت قصير جاء سلاح الدين وشرع بحصار صور برا وبحرا ، وهكذا لم يعد بإمكان أحد جلب شيء من المؤن أو

غير ذلك الى صور ، وأطال السلطان صلاح الدين أيام الحصار وشده ، لهذا عاد الغلاء الى سالف فداخته.

٦٥ - وبعدما تمعن الماركيز في حالة الغلاء الفاحح داخل المدينة ، ورأى أن المسالك البرية والبحرية موصدة والأمل بوصول نجدات ، استدعى اليه من كان بالمدينة من الجنوية وسواهم ، وخاطبهم قائلاً : أيها السادة ، نحن نعيش الآن في مأزق خطير ، إن لم يتداركنا الرب برحمته ، لقد عم الغلاء واشتد كثيراً في أرجاء المملكة ، وندرت الأقوات ، وانعدمت الحبوب التي يمكن بها أن نقيم أود حياتنا ، وهامي منافذ البر والبحر مسدودة في وجهنا ، ولا أمل بوصول نجدة الينا ، وإنني أتوسل اليكم باسم الرب في ايجاد خطة تنجيننا من هذا المأزق.

وبعد لأي نهض أحد الجنوية وخاطبه قائلاً : إذا تجاوبت معي فلدي خطة مناسبة ، وسأله الماركيز : ما هي خطتك؟ فأجابه : اليك تفاصيلها ، تعلم أنه لدينا في المدينة عدداً من أنواع السفن ، دعني أجهز أربعة من الشواني وأشحنها بخيرة من هنا من الرجال ، ثم نقلع مبحرين قبل انبلاج الفجر ، ووقتها سيخيل لمن يرانا أننا نحاول الهرب ، وما أن يرانا المسلمون حتى سيبادروا الى حمل اسلحتهم والسعي للحاق بنا ، ومطاربتنا ، وطبعاً لعجلتهم لن يسلموا أنفسهم تماماً ويتدبروا شؤون احتياطهم ، وفي الوقت نفسه تكونوا أنتم قد صعديتم الى ظهور بقية الشواني والمراكب بأفضل المقاتلة ، فإذا شاهدتم المسلمين قد نشروا قلوبهم وبادروا الى مطاربتنا وصاروا بعيدين عن المدينة ، أقلعوا بسفنكم وسيروا خلفهم وأنذاك سننعتف نحن ونعود نحوهم فنقاتلهم جميعاً ، ووقتها سيأتي الفرغ من عند الرب ، فأقر الجميع هذه الخطة وساروا وفق مقترحاتها ونفذوه.

٦٦ - وقبيل حلول فجر اليوم التالي ، كان هذا الجنوي قد أعد شوانيه الأربع تماماً وشحنها وبالمقاتلة ، وفي الوقت نفسه شحنت

بقية السفن والمراكب ، وقبيل اشراق شمس الصباح أقلع هذا الرجل ، وكان مرسى مدينة صور الذي تدخل السفن إليه وتخرج منه واقعا وراء اسوار المدينة ، وهكذا تسلل وخرج بهدوء تام ، حتى إذا ابتعد بعض الشيء عن المرسى رآه المسلمون ، فبادورا سراعا لملاحقته ، لكن بدون اتخاذ الاستعدادات الكاملة ، وقد أقلعوا بسفنهم المائة وشرعوا بمطاربته.

وعندما ابتعدوا عن المدينة ، وصاروا في عرض البحر ، باير من بها الى الخروج منها ، وأبحروا في آثارهم ، وعند ذلك انعطف الجنوية ، واشتبكوا وأهالي صور بالمسلمين الذين لم يكونوا مستعدين تماما ، فقتلوا عددا كبيرا منهم ، والحقوا بهم الهزيمة ، ونجا من مراكب المسلمين مركبان فقط من بين المائة سفينة ، ولم يقعا بأيدي أهل صور ، وكان صلاح الدين قد وقف يرقب ما حدث ويكي بمرارة ، ويشد شعره ويمسك بلحيته وهو يتألم لرؤية رجاله في محنتهم وهم يفتك بهم أمام ناظريه دون أن يتمكن من نجدهم ، وبعدما فقد اسطوله ، قوض خيمه وأزال معسكره ورفع الحصار عن المدينة وارتحل ، وهكذا نجت صور على يدي الماركيز الذي طبق هذه الخدعة .

وفي هذه الآونة كان الملك غي مقيما في معسكره المحصن قرب عكا ، فهناك وجده ملكا فرنسا وانكلترا عندما قدما فيما بعد.

٦٧ - ولم يلبث الملك غي بعد هذا الحادث حتى ماتت زوجته ، وبذلك آلت الملكة الى أختها زوجة همفري ، صاحب شقيف تيرون ، وبعد ذلك قام الناس وفصلوا زوجة همفري عنه وزوجوها من الماركيز ، فصار بذلك ملكا ، وقد أنجبت له ابنة ، ثم إن هذا الماركيز لاقى حتفه غيلة على أيدي طائفة الحشيشية ، فأخذ القوم أرملته وزوجوها من الكونت هنري دي شامبين ، ثم جدوا بعد هذا في حصار عكا حتى استولوا عليها.

٦٨ - والآن بعدما فرغت من الحديث عن الأثم الذي اقترفه الامبراطور ، ومن أجله أبغض الماركيز مونتقرات هذا الامبراطور ، وبسببه أيضا كان أكثر من غيره حماسا لخطة التوجه الى القسطنطينية ، أعود الى سياق الحديث الذي كنا فيه من قبل .

فبعدهما قال بوج البندقية للبارونات أنه قد توفر لهم أفضل مسوغ يمكنهم التذرع به في التوجه الى القسطنطينية ، وأنه يحض بكل حرارة على التوجه الى هناك ، وافق البارونات جميعا على طلبه هذا ، وهنا عرضت القضية على الأساقفة حيث سألوهم عما إذا كان قصد القسطنطينية يعد خطيئة؟ فأجابهم "الأساقفة أن ذلك لن يكون خطيئة بل عملا جيدا ، فمن المتوجب على البارونات تقسيم العون لصديقهم الوريث الشرعي للعرش الذي سلبه ، وتمكينه من استرداد حقوقه ، والانتقام من عدوه .

وطلبوا بعد هذا من الشاب أن يقسم على الأثار المقدسة ويتعهد بالحفاظ على العهود التي أبرمها معهم من قبل .

٦٩ - وأجمع بعد هذا الحجاج والبنائقة على قصد القسطنطينية ، فأعدوا شونهم وسفائنهم ، وأقلعوا وساروا فوق ظهر البحر حتى وصلوا الى ميناء أبيبوس ، وهي مدينة تبعد عن القسطنطينية مسافة مائة فرسخ ، وكان هذا المرسى هو المكان الذي أقام فيها تروي الكبير عند مدخل مضيق البوسفور ، وبعد هذا أقلعوا من هناك ، واتجهوا نحو القسطنطينية ، حتى إذا باتوا على قرابة فرسخ واحد منها توقفوا بقصد تجمع سفن الاسطول كلها ، وبعدهما تكامل مجيء سائر السفن على اختلافها ، أعدوا سفائنهم وزينوها ، حتى بان مرآها أبدع ما وقعت عليه العين من المناظر .

وعندما رأى أهالي القسطنطينية هذا الاسطول العملاق ، القوي التجهيز ، شرعوا ينظرون اليه بامعان ودهشة وحيرة ، وقد

استببت بهم الدهشة والخشية ، فصعدوا الى أعلى الأسوار وظهر البيوت ينظرون الى هذه الاعجوبة ، وفي الوقت نفسه شرع الذين كانوا على ظهر الاسطول بتفحص المدينة ، التي كانت عظيمة الطول والامتساع ، وقد أعجبوا لها ودهشوا لمراها ، ثم عبروا من أمامها وقصدوا خلبونية في العدة الأخرى من مضيق البوسفور .

٧٠ - وعندما علم الامبراطور (الكسيوس الثالث) بخبر الصليبيين ، أرسل اليهم وفدا من كبار رجالاته ليسألوهم عما يريدون وما الذي جاء بهم ، وبعث اليهم يخبرهم أنه على استعداد لمنحهم عن طيب خاطر كل ما يريدون مما لديه من ذهب وفضة ، إن كانوا جاؤوا لذلك ، وعندما سمع البارونات هذه الرسالة أعلموا الرسل أنهم لا يريدون شيئا من ذهبه أو فضته ، وكل الذي يريدوه التنحي عن عرش الامبراطورية لأنه لم ينله بالوسائل المشروعة بل بالاعتصاب ، وبعثوا الى الامبراطور برسالة أعلموه فيها بوجود الكسيوس ابن الامبراطور اسحق بينهم ، فهو الوريث الشرعي للعرش ، وأنداك أجابهم الرسل بأن الامبراطور لن يستجيب لأي من مطالبهم ، ثم ودعوهم عائدين .

٧١ - وإثر هذا خاطب دوج البندقية البارونات قائلا : « أيها السادة ، أرى أن نأخذ عشر شواني ، ونركب على سفينة منها هذا الشاب ومعه بعض الرجال ، وأن تقصد هذه السفن شاطئ القسطنطينية وهي ترفع راية الأمان ، وذلك بهدف سؤال أهل المدينة عما إذا كانوا على استعداد للاعتراف بسيادة هذا الشاب عليهم » .

فرد عليه رجالات الحملة بقولهم : إن هذا رأي وجيه ينبغي الأخذ به ، وبناء عليه جهزوا السفن المطلوبة واعتلى على ظهر احداها الشاب مع عدد كبير من الرجال المسلحين ، وجذفوا حتى وصلوا الى أسوار المدينة ، ثم أخرجوا هذا الشاب واسمه الكسيوس وعرضوه أمام أهلها ، وسألوهم عما إذا كانوا يعبدونه سيدهم ، فرد عليهم أهل المدينة بكل صراحة قائلين بأنهم لا

يعترفون به سيدا عليهم ولا يعرفون من أمره شيئاً فبين لهم الرجال الذين كانوا بالسفن أنه ابن اسحق الامبراطور السالف ، فأجابهم اهل المدينة مجدداً قائلين إنهم لا يعرفونه ولا يعرفون عنه شيئاً ، وبناء عليه عادوا جميعاً الى الجيش وأخبروا قائده بخبر القوم وأجوبتهم لهم ، وعند ذلك صدرت الأوامر الى جميع أفراد الجيش صفاراً وكباراً بحمل السلاح والاستعداد للمعركة ، وبعدما حمل الجميع أسلحتهم بدأوا يقدمون اعترافاتهم وتناولوا القربان المقدس ، ذلك أنهم كانوا خائفين ويخشون من الزحف على القسطنطينية ، ورتبوا كتائبهم وأعدوا سفنهم وشوانيهم ومراكب حملتهم ، ودخل الفرسان الى مراكب النقل مع جيادهم ، وأقلع الاسطول ، وزعقت الأبواق الفضية والنحاسية وكان منها مائتا زوج ، وقرعت الطبول ودقت الكوسات فقد كان هناك منها الكثير.

وعندما أبصر اهل القسطنطينية هذه العمارة البحرية العملاقة وهذه القوات الهائلة وسمعوا أصوات الأبواق والطبول التي أحدث قرعها ضجة كبيرة ، حملوا أسلحتهم جميعاً ، وصعدوا فوق البيوت في المدينة والأسوار ، وبات المشهد وكأن البحر والبر قد ثاروا فقد غطت السفن وجه الماء ، وفي الوقت نفسه أمر الامبراطور رجاله بحمل أسلحتهم والتوجه الى الساحل للدفاع عنه.

٧٢ - وعند أبصر الصليبيون والبنادقة الاغريق يتقدمون نحو الشاطيء وهم يحملون أسلحتهم ، بهدف صدهم تشاوروا فيما بينهم وتداولوا حتى قال لهم دوج البندقية إنه سيزحف أمام الجميع على رأس جميع قواته وسيستولي على الشاطيء بمعونة الرب ، ثم أخذ شوانية وسفائنه ومراكب حملته ، واتخذ موقعه في المقدمة على رأس الجيش ، ثم أمر برماة السهام ووضعهم أمام المراكب لتطهير الشاطيء من الاغريق ، وبعدما تم توزيعهم حسب هذه الخطة تقدموا نحو الشاطيء ، وما أن رأى الاغريق ، وبعدما تم توزيعهم حسب هذه الخطة تقدموا نحو الشاطيء ، وما أن رأى الاغريق أن

الحجاج مقبلون وكلهم تصميم ، غير خائفين أو وجلين ، ارتدوا على أعقابهم ، وفقدوا الجراءة على الصمود أمامهم ، وهكذا شق الاسطول الصليبي طريقه ، وما كانت السفن تلامس طرف الساحل حتى وثب الفرسان من مراكب الحمولة وقد امتطوا ظهور خيولهم ، وكان لمراكب الحمولة هذه أبواب يمكن فتحها حيث تمتد بما يشبه الجسر يمكن للفرسان العبور عليه الى اليابسة وهم على ظهور خيولهم.

وعندما رسا الاسطول بمحاذاة الشاطئ ، سيطر الرعب على الاغريق المسيحيين ، خاصة عندما شاهدوا المقاتلين يخرجون ، وكان هؤلاء الاغريق هم الاناس أنفسهم الذين قدموا للدفاع عن الشاطئ ، والذين كانوا يتشدقون أمام الامبراطور ويتحججون أن اللاتين لن يتمكنوا من الرسو والنزول الى اليابسة ماداموا مرابطين هناك ، لكن عندما نزل الفرسان من مراكب الحمولة شرعوا في طرد هؤلاء الاغريق وتعقبوهم حتى جسر كان على مقربة من رأس المدينة ، عليه باب اجتازه الاغريق في هروبهم الى داخل القسطنطينية.

٧٣ - ولما أب الفرسان من مطاردة الاغريق تدارسوا الوضع الجديد ، فقال لهم البنادقة إن سفنهم لن تكون آمنة على نفسها ، إلا إذا رست داخل الميناء ، ولهذا عقدوا العزم على ارسائها فيه ، وكان مرسى القسطنطينية أمنا كل الأمن لوجود سلسلة معدنية عملاقة ممتدة عند مدخله قد ربط طرفها الأول عند برج غلاطية وشد الطرف الآخر الى المدينة ، وكان برج غلاطية شديد الحصانة منيعا لا يمكن اقتحامه بسهولة لأنه شحن بالمدافعين المجهزين أفضل جهاز.

وبناء عليه أخذ القوم بهذا الرأي فحاصروا البرج وشدوا الحصار عليهم حتى تم الاستيلاء عليه عنوة ، وكان هناك عدد كبير من المراكب الاغريقية منتشرة على طول السلسلة ، ودخلت سفن

الاسطول الى المرسى فباتت آمنة فيه ، وتم في تلك الأثناء الاستيلاء على عدد من المراكب الاغريقية التي كانت راسية بالمرسى.

٧٤ - وبعدها أصبحت السفن والمراكب آمنة داخل المرسى ، احتشد الحجاج جميعا هناك ومعهم البنادقة للتداول حول كيفية الاغارة على المدينة ، وخلصوا الى الاتفاق على أن يقوم الفرنجة بمهاجمة القسطنطينية برا والبنادقة بحرا ، وأعطى دوج البندقية أوامره لاتباعه بنصب ما لديهم من المعدات والأسلالم على ظهر السفن حتى يستطيعوا بوساطتها مهاجمة الأسوار.

وفي الوقت نفسه تجهز الفرسان والحجاج جميعا وحملوا أسلحتهم وقصدوا واحدا من الجسور وقع على قرابة مرحلتين منهم ، وأرادوا الاستيلاء عليه والعبور منه الى داخل القسطنطينية ، لعدم توفر طريق آخر يمكن عبوره وطوله أقل من أربعة فراسخ ، غير هذا الطريق الممتد من الجسر ، وعندما وصلوه بادر الاغريق الى صدهم وللحيلولة بون عبورهم له ، لكنهم أخفقوا وتمكن الحجاج بعد جهد من اجلائهم بقوة السلاح ، وهكذا عبره الحجاج ، وعندما وصلوا الى أطراف المدينة نصب سادة القوم خيمهم أمام قصر بلاشرين الخاص بالامبراطور والقائم عند رأس المدينة.

٧٥ - وكان بحوزة دوج البندقية معدات هائلة على درجة عالية من الدقة ، فقد أخذ صواري مثل التي تحمل قلوب السفن طول كل منها مائة وثمانين قدما أو أكثر ، وشدها الى بعضها شدا محكما ثم ربطها الى صواري السفن بحبال متينة ثم أمر بمد جسور فوقها تكون قوية متوازنة ، جاءت من خشب الصنوبر ، ووضع أعمدة على امتداد الحبال ، وجاءت الجسور واسعة جدا بحيث يمكن لثلاثة من الفرسان السير عليها معا ، وصنع الدوج سواتر واقية لجوانب هذه الجسور غطاها بالجلود المدبوغة واللبد ، وبذلك بات الذين يسيرون عليها لا يخشون الأذى من رميات النشاب وغير ذلك من المقنوفات

ومدت الجسور من أطراف السفن حتى الأرض ، حتى كان ما بين كل جسر والأرض قرابة مائتان وأربعون قدما أو أكثر ، يضاف الى هذا وضع الدوج على كل مركب من مراكب الحمولة منجنيقا تبلغ رماياته الأسوار وداخل المدينة أيضا .

وفي الوقت الذي هيا فيه البنادق اسطولهم للهجوم حسب الشكل الذي أتينا على وصفه ، قام الحجاج من جانبهم بنصب عراداتهم ومجانيقهم ، بشكل تجعل رماياتها تصل الى قصر الامبراطور ، نصبوها على الأرض ، لأن هجومهم كان برياً ، هذا وكان الذين في داخل المدينة يرمون من جهتهم فتبلغ رماياتهم معسكر الحجاج .

٧٦ - وبعد استكمال الاستعدادات اتفق الصليبيون والبنادقة على أن يشرعوا في الهجوم العام في اليوم التالي برا وبحرا ، وعندما اطل الصباح ، شرع البنادق الذين أعدوا أنفسهم تماما ، بالاقتراب من الأسوار بقدر الامكان استعدادا للهجوم ، وكذلك فعل الحجاج الذين تمركزت قواتهم على الجانب الآخر ، وهنا رأوا الكسيوس امبراطور القسطنطينية يخرج من المدينة عبر باب اسمه الباب الروماني ، وخرج معه جميع رجاله وهم شاكوا السلاح ، ونظم الامبراطور قواته خارج الباب وجعلها سبعة عشر فيلقا تعدادهم قرابة المائة ألف فارس يمتطون الخيول ، وأرسل الامبراطور جل هذه الفيالق لتطويق معسكر الفرنجة ، وترك بعض الفيالق معه ، وكان قد أجبر جميع القباريين على حمل السلاح من سكان المدينة على الخروج ووزعهم حول الأسوار كلها ، وبهذا وقفوا بينها وبين معسكر الفرنجة ، وعندما رأى الفرنجة ما حدث وأنهم باتوا مطوقين من هذه الفيالق خافوا حتى حد اليأس ، واشتد أساهم ، لكنهم أخذوا يعدون فيالقهم للقتال وكان قد بلغ عددها سبعا فقط ، تكونت من سبعمائة فارس حيث لم يكن لديهم أكثر من هذا العدد ، ولم يكن من هؤلاء السبعمائة سوى خمسين فقط من الرجال.

وبعدما عبأوا قواتهم حسبما وصفنا ، طلب كونت فلاندرز أن يتولى قيادة الفيلق الأول فأجيب الى طلبه ، وطلب كونت سانت بول ومولاي بيتر الداميانى قيادة الفيلق الثانى وتولى اللورد هنرى أخو كونت فلاندرز قيادة بقية القوات من الفرنجة والألمان معا ، ثم اتفقوا على أن يزحف الفرسان أولا وأن يسير خلف كل فيلق من فيالق الفرسان عدد من الرجالة من أبناء جلدة الفرسان .

٧٧ - وبعدما تم انتقاء ثلاثة فيالق لتتولى الهجوم على جيش الامبراطور ، عهد بقيادة أحد الفيالق الأربعة المتبقية لحراسة المعسكر الى الماركيز بونيفيس دي مونتفرات ، وكان هو القائد العام للجيش وقد وقف في الساقة وتولى أمور الدفاع عن المعسكر من الخلف ، وقاد الفيلق الثانى الكونت لويس ، وتكون الفيلق الثالث من أهل شامبين ، والرابع من البرغنديين ، وكان - كما قلنا - الماركيز هو القائد الأعلى لهذه الفيالق بوصفه القائد العام للقوات .

٧٨ - ثم جاءوا الى الفتیان الذين يتولون العناية بالخيول والى الطباقين القادرين على حمل السلاح ، وجهزهم بالاغطية والستر وحلوس الدواب والاورانى النحاسية وايدي المهاريس والعصي ، وكان منظرهم منظرا بشعا لاتألفه النفس ويخشاه القلب ، ولهذا خاف جمهور رجالة الامبراطور الذين وقفوا امام الاسوار منهم خوفا شديدا ، واستبدهم الرعب ساعة رؤيتهم لهم .

وتولت الفيالق الاربعة التى ذكرتها لك حراسة المعسكر بدون تباطؤ ، وذلك خوفا من ان تتقدم فيالق الامبراطور التى تطوقهم فتسعى لاقتحام المعسكر والدخول الى الخيم ، وتلحق بها المضار والاذى ، وتمركز الفتیان الذين يسوسون الخيول مع الطباقين في الناحية المواجهة لشطر المدينة حيث وقفت رجالة الامبراطور الذين انتشروا امام الاسوار .

وبعدما رأى رجاله الامبراطور رجال العامة منا وقد تعبأوا خيراً
تعبئةً ، اعتراهم الخوف الشديد ، واستبد بهم الرعب المميت ، فلم
يملكوا الجرأة على مبارحة اماكنهم والزحف ضدهم ، وهكذا
اطمان معسكرنا من وفود اي خطر عليه من هذا الجانب .

٧٩ - ثم صدرت الاوامر ان يقوم كونت فلاندرز وكونت دي
سانت بول واللورد هنري ، وهم الذين كانوا يتولون قيادة الفيالق
الثلاثة ، بمهاجمة الامبراطور ، وصدرت الاوامر ايضا الى الفيالق
الاربعة الاخرى بالألا تتحرك من اماكنها مهما كانت حاجة الاخرين
اليها ، اللهم الا اذا رأت ان وقوفها حيث هي سيؤدي الى هلاكها ،
وقد صدرت هذه الاوامر اليها خشية من ان يحال بينها وبين
العودة ، او ان تهاجمها الفيالق التي احاطت بالمعسكر .

٨٠ - وفي الوقت نفسه عندما كان الفرنجة يتعبأون على هذه
الصورة لخوض المعركة لم ينس البنائقة نورهم ، وبما انهم كانوا
على سطح البحر فقد اقتربوا من اسوار المدينة حتى التصقت
مراكبهم بها ، او كانت ، وهكذا بات بإمكانهم الارتقاء اليها
بوساطة السلالم والجسور التي اقاموها على سفنهم ، ثم راحوا
يرمون ويقذفون القذائف بوساطة المجانيق والعرادات ، وانقضوا
على المدينة بهجوم عنيف عاصف حتى انهم توصلوا في النهاية الى
طرح النار في المدينة واتى الحريق على شطر كبير منها يعادل في
حجمه مدينة اراس ، غير انهم لم يملكوا الجرأة على التجول
بالمدينة والزحف بداخلها ، لانهم كانوا حفنة من الرجال لا يمكنهم
المقاومة ، ولهذا انسحبوا وعادوا الى سفنهم .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر تمت تعبئة الرجال الذين توجب
عليهم القتال إلى جانب الامبراطور ، بحيث حددت أماكن تركز
ومهام كل واحد من الفيالق ، وجرى اختيار اثنين من أكثر الرجال
حنكة ودرية وعهد إليهما بالقيادة والزموا الجنود بطاعتها تماما
فإذا قال لهم: ارحفوا، زحفوا وإذا قالوا: اركضوا، ركضوا .

٨١ - ووقف كونت فلاندرز على رأس مقدمة القوات ، أي في الطبيعة ، وهكذا ركب مسرعا وانقض بكل عنف على الأمبراطور ، الذي كان على بعد ربع فرسخ منه ، والذي أصدر أوامره لقواته بالزحف للتصدي لهجوم كونت فلاندرز .

وزحف كونت دي سانت بول واللورد بيتر الداميانى اللذان قادا الفيلقين الآخرين بعد كونت فلاندرز مباشرة ، وزحف بعدهما مباشرة هنري دي هينولت والألمان الذين كانوا قوام الفيلق الثالث ، والبست الخيول الدروع الواقية ثم غطيت هذه الدروع بأقمشة حريرية زاهية ، وسار وراء كل فيلق من الفيالق مباشرة ثلاث أو أربع أو خمس فرق من السير جانتيه والرجالة ، وقد زحفوا على شكل أرتال طويلة في صفوف جاور كل مقاتل آخر ولم يتجاوزوه أو يتجرا بالتقدم عليه .

وزحف الأمبراطور ومعه فيالقه التسعة كلها للتصدي إلينا ، وكان في كل فيلق مالا يقل عن ثلاثة آلاف فارس ، لابل تألف بعضها من أربعة آلاف ، وبعضها الآخر من خمسة آلاف .

٨٢ - وبعدها بات كونت فلاندرز على بعد قرابة غلوتين من معسكره نبيه مستشاراه إلى ضرورة التمهّل وقال له : لا يحسن بك أن تبتعد كثيرا عن معسكرك لقتال الأمبراطور ، إذ لن يكون بمقدور القائمين على حماية المعسكر المباشرة إلى نجبتك ، إذا كنت بعيدا جدا عنهم ، واحتجت إلى مساعدتهم ، ونرى أن تصفي لنصيحتنا وتعود إلى مواقفك ، وتلبث هناك في انتظار الأمبراطور وأنت مطمئن إلى أوضاعك إذا أراد قتالك .

وأصغى كونت فلاندرز إلى هذا الرأي وأخذ به فعاد إلى مواقفه ، وكذلك فعل فيلق مولاي هنري ، وأما كونت سانت بول ومعه بيتر الداميانى فقد رفضا النكوص ، ومع هذا فقد وقفوا مع قواتهما في وسط ميدان المعركة .

٨٢ - وعينما رأى كونت سانت بول وبيتر الداميانى نكوص كونت فلاندرز قال بعضهم لبعض : لقد اقترب كونت فلاندرز إثمًا كبيرًا بنكوصه وجله العار ، لأنه هو الذي تمهد بقيادة المقدمة وأن يكون على رأس الطلائع ، ثم قالوا : أيها السادة إن كونت فلاندرز قد انتكص وهو بعمله هذا قد تخلى لكم عن مقدمة الجيش ، فلناخذ مكانه باسم الرب ، وهكذا اتفق هؤلاء البارونات على أن يقولوا قيادة المقدمة والوقوف بالطليعة .

٨٤ - ولما رأى كونت فلاندرز رفض كونت سانت بول والكونت الداميانى التقهقر بعث إليهما برسالة مع واحد من رجاله ، وحثهما على التقهقر ، فرد عليه مولاي بيتر الداميانى بالرفض وقال إنه لن يتراجع ، ومجددا بعث إليه كونت فلاندرز برسولين للفرض ذاته والتمس منه باسم الرب التراجع والا يجللهم العار ، فقد عاد هنو نزولا على النصائح التي أسديت إليه ، وعليه أن يكون مثله ، فرد الداميانى مجددا معه كونت سانت بول بالرفض ، وتشبثا بموقفهما .

٨٥ - ثم التفت مولاي بيتر الداميانى ومولاي يوستاس دي كانتلو نحو قوات فيلقهما وقالوا : أيها السادة اركبوا الآن ، وتقدموا باسم الرب ، ولنسرع جميعا ، وشرعا بالتقدم بكل سرعة ، وعند ذلك أخذ الذين بقيوا من الجيش وقوا بالصياح والصراخ : انظروا ، انظروا ، هاهو كونت سانت بول وبيتر الداميانى متوجهان لمهاجمة الامبراطور ، ولهذا شرعوا في البكاء والانتحاب والصراخ قائلين : « مولانا الرب احفظهما اليوم ومن معهما جميعا . انظروا لقد توليا الطليعة التي كانت قيادتها إلى كونت فلاندرز ، فرد الجميع يامولانا سالمين » .

٨٦ - ومن داخل القصر الامبراطوري وقفت سيدات القصر وفتياته أمام النوافذ يرقبن المعركة التي تصور رحاها أمامهن ، وكذلك اعتلت نساء وفتيات أهل المدينة الأسوار وفضلن الشيء نفسه ، وبينما رأين الامبراطور من جانب المدينة ، أبدين إعجابهن برجالنا

وكن يقلن بعضهن لبعض : هؤلاء الرجال يشبهون الملائكة ، لهم جمال وبهاء وأسلحة بديعة وجياد مجهزة خير جهاز .

٨٧ - وحين رأى فرسان فيلق كونت فلاندرز إصرار كونت سانت بول وبيتر الداميانى على عدم العودة وتشبثهما بموقفهما مهما كانت العواقب توجهوا نحو مقدمهم كونت فلاندرز وخاطبوه قائلين : يامولانا لقد اقتربت ذنبا عظيما بعدم تقدمك ، وإننا نعلمك أننا لم نعد أنفسنا نرتبط بك ، وسنهجرك إن لم تبادر إلى الهجوم الآن .

ولدى سماع الكونت لهذا التهديد لوى عنق فرسه وتحرك مسرعا ، وقلده الباقون وزحفوا مسرعين حتى أدركوا قوات كونت سانت بول وبيتر الداميانى ، وعندما وصلوا إليهم اتحدوا وساروا جبهة واحدة ، وسار وراءهم اللورد هنري ومعه قواته .

وما لبثت قوات الأمبراطور وقواتنا أن باتت قريبة بعضها من بعض حتى درجة التلاحم ، إلى حد أن رماة السهام في جيش الأمبراطور كانوا يرمون وهم في وسط رجالنا وكذلك فعل رماتنا حيث كانوا يرمون وهم قيام وسط رجال الأمبراطور .

٨٨ - وكان هناك تل صغير فصل بين قوات الأمبراطور وقواتنا ، وعندما شرعت قوات الأمبراطور في ارتقاء هذا التل من الجهة التي واجهتهم ، صعبت قواتنا بدورها الجهة المقابلة لهم ، وعندما رآهم الأمبراطور توقف هو وجميع رجاله ، فقد ضربهم الهلع وسيطر عليهم الغم وشعروا بالاحباط لرؤيتهم قواتنا زاحفة من أعلى التل نحوهم ، وثاروا ولم يعودوا يعرفون ما يفعلون ، وفيما هم لحيرتهم وخوفهم ، قامت بقية قوات الأمبراطور التي كانت قد أرسلت لتطويق المعسكر بالانسحاب من مواقعها لتنضم إلى قوات الأمبراطور التي وقفت عند سفح التل .

٨٩ - ولدى مشاهدة الفرنجة لتجمع قوات الأمبراطور

واحتشادها في مكان واحد ، تريثوا عند القمة وهم يتسائلون عما سيفعله الأمبراطور ، وتراسل قادة الفيالق الثلاثة ومقدموا التشكيلات وتشاوروا حول ما ينبغي عليهم القيام به : هل يتقدمون لمقاتلة جيش الأمبراطور أم يمتنعون عن ذلك ؟ واتفقوا أخيرا على عدم التقدم لأنهم باتوا بعيين جدا عن معسكرهم ، وإذا ما هاجموا الأمبراطور حيث هو لم يعد بمقدور المتولون لحراسة المعسكر رؤيتهم وإنجاهم إذا اقتضى الحال ذلك ، زد على هذا قام بينهم وبين الأمبراطور مجرى ماء كان عبارة عن قناة كبيرة جرى فيها الماء الذي كان يفذي القسطنطينية ، وقد وجدوا أنفسهم أنهم إذا ما غامروا بعبور هذه القناة فسيتكبدون خسائر كبيرة في قواتهم ، ولهذا كله عزموا على عدم متابعة الزحف .

وفيما كان الفرنجة يتداولون فيما بينهم حول هذه الشؤون ، إذا بهم يرون الأمبراطور وقد انسحب وقواته عائدا إلى القسطنطينية حيث تلقتة نساء المدينة وفتياتها بأقذع السباب والشتائم ، وسخر منه الجميع ووجهوا إليه اللوم لتقاعسه عن الالتحام بجيش الفرنجة الصغير لاسيما وتحت تصرفه هذا الجيش العملاق .

٩٠ - وعندما أنكفأ الأمبراطور وتراجع على هذه الصورة ، عاد الحجاج نحو معسكرهم ، ووضعوا أسلحتهم جانبا ، وعند ذلك وصل إليهم البنادقة في سفنهم ومراكبهم ليستوضحوا منهم جلية الحال وقالوا لهم : في الحقيقة سمعنا أنكم كنتم تقاتلون الأغريق ، وكنا نحن في خوف شديد عليكم ، لهذا جئنا لتقديم العون إليكم .

فأجابهم الفرنجة : لقد قمنا بما توجب علينا ، ونحمد الرب أن وفقنا بالنهوض لحرب الأمبراطور ، غير أنه تقاعس وجبن عن الالتحام معنا ، ثم سألهم الفرنجة بدورهم عن آخر أخبارهم فأعلموهم قائلين : في الحقيقة شننا هجوما عنيفا جدا على المدينة واقتحمناها من فوق أسوارها وأضرمت النيران فيها ، وقد أكلت النيران شطرا كبيرا منها .

وفيما كان الفرنجة والبنائقة يتبادلون أحاديثهم هذه إذا بهم يسمعون أصوات ضجة هائلة صدرت من داخل المدينة ، ومرد ذلك أن سكان المدينة طالبوا الإمبراطور ببذل جهده بدون تقاعس لتخليصهم من الفرنجة الذين شددوا عليهم الخناق ، وتهديوه - إن هو أحجم أو تقاعس عن قتالهم - بأن يرسلوا وراء الشاب الذي جاء به الفرنجة ويتوجه إمبراطورا عليهم ويوكلون إليه شؤون حكمهم .

وبعدما أصفى الإمبراطور إلى مطالبهم ، تعهد لهم بأنه سوف يقاتل الفرنجة في الغد ، لكن الذي حدث هو أنه عندما أوشك الليل على الانتصاف هرب من المدينة وأسطحبت معه من قدر على اصطحابه من حاشيته .

٩١ - ومع حلول صباح اليوم التالي ، عرف أهل المدينة بأن الإمبراطور قد هرب ، وهنا لم يجدوا أمامهم من مخرج سوى التوجه إلى أبوابها وفتحها ، ثم قصدوا معسكر الفرنجة بحثا عن الكسيوس بن اسحق للاجتماع به ، فعرفوا من أهل المعسكر أنه موجود في سرادق الماركيز ، ولدى وصولهم إليه وجدوه هناك ، فسلموا عليه ورحبوا به غاية الترحيب وأبدوا سرورهم بوجوده وقدموا الشكر للبارونات ، وعبروا لهم عن امتنانهم تجاه ما قاموا به وما تجشموه من مشاق ، وبينوا لهم أنهم أنجزوا عملا جليلا جديرا بالثناء والتشريف ، ثم أعلموهم بفرار الإمبراطور ، وأن بإمكان الصليبيين الدخول إلى المدينة والقصور والتصرف بها كما لو كانت ملكا لهم .

٩٢ - وبناء عليه احتشد بارونات الجيش وقائمه ، وحملوا الكسيوس بن اسحق وتوجهوا به إلى القصر وسط موكب رائع وسرور هائل ، وبعد الوصول إلى القصر أخرجوا والده اسحق من السجن وأخرجوا أيضا زوجته ، واسحق هذا هو الإمبراطور الذي اعتقله أخوه وصار إمبراطورا مكانه .

وبعدما أخرج اسحق من السجن فرح كثيرا بابنه ، وشعر
بالقبطة والسعادة ، وراح يقبله ويمانقه ، وأشاد بجهود البارونات
وشكرهم عظيم الشكر ، وخص بذلك الذين كانوا حضورا آنذاك ،
وقال إن الفضل في إطلاق سراحه يعود إلى الرب أولا ثم إليهم
ثانيا ، ثم تم إحضار عرشين مذهبين جلس اسحق على واحد منهما
وجلس ابنه الكسيوس إلى جواره على الثاني ، وقد احتل اسحق
العرش الأساس .

وبعدما عاد إلى عرشه الإمبراطور قيل لاسحق : يوجد بالسجن
هنا رجل كبير اسمه مرزوفلوس ، هو في هذا السجن منذ سبع
سنوات كاملة ، وإذا تفضلت فمكنت عليه بإطلاق سراحه ،
واستجاب الإمبراطور اسحق ، وأمر بإخراج مرزوفلوس من
السجن واصطنعه لنفسه بجعله كبير نوابه ، غير أن الإمبراطور
اسحق لقي منه أسوأ الجزاء ، وبأمره بالشر لقاء كرمه نحوه كما
سنحكي ونروي لك فيما يلي .

٩٣ - بعدما فرغ الفرنجة من هذه الأعمال وأنجزوا ما أنجزوه
سمع سلطان قونية بما صنعه الفرنجة ، ولهذا قدم إلى محادثتهم ،
وهم ما يزالون في مسكرهم خارج القسطنطينية وقال لهم : أيها
السادة ، لقد أنجزتم في الحقيقة إنجازا رائعا ، وقمتم بالفعل بعمل
من أعمال البطولة الباهرة ، حين تمكنتم من الاستيلاء على
القسطنطينية ، وهي مدينة منيعة جدا لا ترام ، ثم هي حاضرة
الدنيا ، وأيضا حين أرجعتم العرش إلى صاحبه الشرعي ، وتوجتم
وريث القسطنطينية إمبراطورا ، هذا واعتاد الناس هناك على القول
أن القسطنطينية هي حاضرة الدنيا .

ثم استطرد سلطان قونية يقول : « أيها السادة ، إن لدي قضية
أريد طرحها عليكم ، وخلاصة الأمر أن أخالي صفيح تسليح بالخيانة
وغدر بي فانتزع مني بلادي وأمارتي في قونية التي كنت أحكمها
وكنت صاحبها الشرعي ، فإذا قمتم لي العون على استردادها ،

وتمكنت من العودة الى سلطاني وامارتي بمساعدتكم وهبتكم الكثير من الثروات ، وعمدت نفسي مسيحيا ، وكذلك الذين حولي جميعا .

واجابه البارونات انهم سيتداولون الامر فيما بينهم ، ثم استدعوا دوح البندقية والماركيز وسائر كبار البارونات ، وعقدوا اجتماعا موسعا ، وبعد مداوات توصلوا اخيرا الى الاتفاق باجماع على عدم تلبية طلب السلطان ، وهكذا اعلموه بعد خروجهم من الاجتماع انهم غير قادرين على تلبية طلبه والذهاب معه ، فهم مازالوا ينتظرون تسلم المكافاة من الامبراطور ، ثم من غير الحكمة مغادرة القسطنطينية الان ، لان الامور فيها لم تستقر بعد ، ومادامت الحالة على هذا النوال لن يتحركوا من مكانهم ولن يغادروا القسطنطينية ، وانزعج السلطان لدى سماعه هذا الجواب وغضب منهم غضبا شديدا ثم غادر معسكرهم .

٩٤ - وكان عندما حمل البارونات الكسيوس الى القصر ، سالوا عما اذا كانت اخت ملك فرنسا ، التي كانت زوجة الامبراطور الفرنسية ، ماتزال على قيد الحياة ، وجاءهم الجواب بالايجاب ، وانها تزوجت من رجل من كبار اعيان المدينة اسمه براناس ، وتعيش في قصر يقع على مقربة منهم ، فتوجه البارونات نحوها للاجتماع بها وتقديم التحيات والولاء ، غير انها لاقتهم بفتور شديد ، وكانت حانقة عليهم حنقا شديدا ، لانهم قاموا بتتويج هذا المدعو الكسيوس ، وابدت عدم رغبة بالحديث اليهم ، وكلمتهم من وراء حجاب بواسطة رجل كان ينقل كلامها اليهم ، وقال المتحدث عنها انها لاتعرف احدا من الفرنسيين على الاطلاق ، ولكن ابن عمها الكونت لويس عرفها بنفسه .

٩٥ - وفي احد الايام قصد البارونات القصر الامبراطوري للتسلية ورؤية اسحق وابنه الامبراطور ، وفيما هم جلوس في القصر جاء احد الملوك ، وكان اسود البشرة قد وشم جبينه بشارة الصليب بواسطة الحديد المحمي ، وكان هذا الملك يعيش في دير داخل المدينة

كان عظيم الثراء ، كان الامبراطور السالف الكيسوس قد اسكنه فيه ، وخوله التصرف بهذا الدير وبتملكه مادام يمتلك الرغبة بالاقلمة به ، وعندما سمع الامبراطور انه مقبل نحوه ، بادر لتلقيه والترحيب به بكل حرارة ، ثم التفت الامبراطور نحو البارونات وسالهم : هل تعرفون هذا الرجل ؟ فاجابوه بالنفي كلالا لانعرفه يامولانا ، فقال الامبراطور : انه ملك النوبة ، وقد قدم الى هذه المدينة للحج .

ثم جيء ب مترجم ل يترجم بينهم وبينه ، فسألوه عن موقع بلاده ، فاجابهم بانها تبعد عن مدينة القدس مسيرة مائة يوم ، وانه غادر بلاده متوجها نحو القدس بقصد الحج ، وبين انه كان برفقته وقت مغادرته لبلاده ستونا من ابناء قومه ، لم يبق منهم على قيد الحياة إلا اثنان فقط ، واعلمهم ان بنيته السفر الى روما بقصد الحج وانه سيذهب منها الى مزار القديس جيمس ، ومن ثم سيعود - ان ظل حيا - الى القدس ليقيم هناك حتى توافيه المنية .

٩٦ - وتحدث هذا الملك ايضا ان سائر سكان بلده نصارى ، وان من عاداتهم اذا ولد لاحدهم طفل ، ياتون بعد تعميده بكلي من الحديد المحمي بالنار ويرسمون على جبهته شارة الصليب كالتي يرونها على جبهته ، وحدث البارونات بهذا الملك وقد عرتهم الدهشة واستولى عليهم العجب .

٩٧ - وكان البارونات بعدما قاموا بتتويج الكسيس امبراطورا - حسبا اوضحت من قبل - اتفقوا على ان يقيم معه بالقصر بيتر دي براشو مع رجاله ، واتفق البارونات ايضا على عدم الاقامة في المدينة خوفا من غدر الاغريق ووقع اختيارهم على جعل معسكرهم عبر الميناء وراء برج غلاطية ، وقد وجدوا في تلك الناحية ما يكفيهم من مساكن في بيوت خاصة ، ووضعوا سفنهم على الشاطئ امامهم ، وكانوا يذهبون الى المدينة في الوقت الذي يريدون ، اما بحرا بوساطة القوارب ، او برا على ظهور الخيل عبر الجسر .

٩٨ - بعدما شعر الفرنجة بالاستقرار ، قرروا فيما بينهم هدم ثلاثمائة قدم من اسوار القسطنطينية خوفا من انقلاب سكانها ضدهم .

٩٩ - ثم عقد البارونات اجتماعا بالقصر الامبراطوري ، وبعد ذلك طالبوا الامبراطور بدفع اجورهم ، فاجابهم انه سيفعل ذلك ، لكنه يريد اولا ان يتوج بشكل رسمي ، ولذلك تم تحديد يوم التتويج ، وجرى التتويج في اليوم المحدد وسط احتفال رسمي عظيم ، ونصبوه امبراطورا ، وكان ذلك بموافقة ابيه ورضاه التام ، وبعد الفراغ من عملية التتويج عاد البارونات اليه للمطالبة باجورهم ، فاجابهم انه على استعداد لدفع كل ما هو متوفر له ، وبالفعل اعطاهم مائة الف مارك ، اخذ البنادقة نصفها وذلك جريا على قاعدة الاتفاق بشأن اقتسام الغنائم ، ثم اقتطعوا من الخمسين الف الاخرى مبلغ ستة وثلاثين الف دفعها لهم الصليبيون لانهم كانوا مدانين بهذا المبلغ لقاء نقلهم بحرا ، وقام الحجاج بعد ذلك بسداد ما عليهم من ديون فردية للذين اسلفوهم لدفع اجور النقل ، وذلك من مبلغ الاربعة عشر الف مارك التي بقيت لهم .

١٠٠ - ثم طلب الامبراطور من البارونات الاجتماع به ، واعلمهم انه لايمك بالفعل غير القسطنطينية ، ومربود هذه المدينة ليس بالكبير ، وهي ليست هامة جدا بالنسبة له ،

لان عمه كان مسيطرا على جميع المدن الاخرى والقلع التي من المتوقع ان تكون في يده هو بالذات ، وبناء عليه طلب منهم مساعدته في الاستيلاء على بعض المناطق القريبة ، واعلمهم انه سيفع لهم من الثروات اكثر مما هو مقرر لهم ، ورحبوا بهذا العرض ترحيبا كبيرا ، واعلنوا وسط الجيش من اراد الربح فليستعد للزحف ، وبالفعل زحف مع الكسيوس اكثر من نصف الجيش ، ومكث البقية بالقسطنطينية لاستلام الاجور ، وبقي اسحق بالقصر ليدفع للبارونات اجورهم المستحقة .

وخرج الكسيوس وبرفقته جيشه كله ، فاستطاع الاستيلاء على عشرين بلدة وأكثر من أربعين قلعة ، وفر عمه الكسيوس الامبراطور الآخر من أمامه ، واستغرقت هذه الأعمال ثلاثة أشهر ظلت قوات الفرنجة خلالها مع الامبراطور الكسيوس .

وفي اثناء هذه الفترة ، وبينما الكسيوس خارج القسطنطينية أعاد أهل المدينة بناء ما هدمه الفرنجة من سورهاوزادوه حتى مناعة وارتفاعا ، وكنا قد ذكرنا أن الفرنجة قد هدموا ثلاثمائة قدم من سور المدينة حتى الأرض خوفا من غدر الاغريق بهم .

١٠١ - وعندما رأى البارونات الذين مكثوا بالمدينة لتسلم الأجرور ، أن اسحق يرفض أن يدفع اليهم شيئا من استحقاقاتهم ، بعثوا الى بقية البارونات الذين صحبوا الكسيوس يطلبون منهم العودة لأن اسحق لم يدفع لهم شيئا من الأجرور ، وأوصوهم أن يجعلوا عودتهم قبل عيد جميع القديسين ، وعندما سمع البارونات بهذه الاخبار أعلموا الامبراطور أنهم أييون الى القسطنطينية ، وعندما اطلع على ذلك منهم ، أعلمهم أنه سيعود معهم إن عادوا ، لأنه لا يستطيع الوثوق برجاله الاغريق ، وهكذا عاد الجميع الى القسطنطينية ، فتوجه الامبراطور الى قصره ، وقصد الحجاج مقر سكناهم حيث معسكرهم عبر الميناء .

وبعد هذا اجتمع البارونات وكبار القادة والزوج مع الامبراطور ، وطالبه الفرنجة بأجرورهم فأجابهم بأنه أنفق كثيرا من الأموال اثناء استرداد مينه وعلى رجاله ، وأنه بات لا يمتلك شيئا حتى يدفعه لهم ، غير أنهم إن أمهلوه بعض الوقت فسوف يتدبر الأمور ويجد الوسائل التي تمكنه من دفع ما خصصهم من أموال ، فاستجابوا لمطلبه ، ومع هذا مر الوقت نون أن يدفع شيئا فطالبه البارونات مجددا بأجرورهم ، فرجاهم أمهاله مجددا ففعلوا وأمهلوه من جديد .

١٠٢ - وجاءه في تلك الاثناء رجال حاشيته وأعوانه بما فيهم

مرزوفلوس - الذي كان قد أخرجه من السجن ، وقالوا له : يا مولانا لقد دفعت لهم حتى الآن مبالغ كبيرة من الأموال ، وأن الأوان للامساك ، فضخامة ما دفعته قد حملتك على رهن كل شيء ، ونرجو أن تأمرهم الآن بالرحيل والخروج من أرضك ، وأخذ الكسيوس بهذه المشورة وبات غير راغب بدفع المزيد من المال الذي سبق ودفعه لهم .

وكان الفرنجة قد أعطوه مهلة نهائية للدفع ، وعندما رأوه لا يريد أن يدفع لهم المزيد من المال ، تداعى البارونات وكبار القادة للاجتماع والتداول ، وإثر هذا ذهبوا الى الامبراطور في قصره وطالبوه مجددا بدفع أجورهم ، فأجابهم بالرفض وبين أن ليس بإمكانه أن يدفع لهم شيئا ، كما أنه ليس بنيته دفع المزيد ، فتهدده البارونات أنه اذا استمر في سياسته هذه بعدم الدفع ولم يقض دينه نحوهم فسيستولون على قسم من ممتلكاته مقابل الوفاء بأجورهم .

١٠٤ - وبعدهما وجه البارونات هذا الانذار الى الامبراطور غادروا القصر وعادوا الى معسكرهم ، وإثر ذلك تدارسوا تفاصيل خطة رأوا اتخاذها ، لكنهم أشروا توجيه انذار أخير الى الامبراطور ، فأرسلوا له فارسين ليطلباه مجددا بدفع أجورهم ، فكان جواب الامبراطور أنه لن يدفع لهم شيئا أبدا ، وعليهم الرحيل فورا ومفادرة بلده بدون تقاعس ، واذا لم يفعلوا ذلك فسيرغمهم على فعله .

١٠٥ - وعاد الفارسان الرسولان الى المعسكر وأطلعوا البارونات والقادة على جواب الامبراطور ، ومن جديد شرعوا بعد سماع هذا الجواب بالتداول حول الخطوة التالية ، وهنا انبعث دوج البندقية وأعلمهم أنه سيذهب للحديث معه ، وبناء عليه بعث الى الامبراطور رسالة وطلب منه الحضور الى قرب الميناء والتحدث اليه ، وجاء الامبراطور ممتطيا صهوة جواده ، وكان الدوج قد هيا أربعة مراكب شحنها بالرجال ، ركب هو في واحد منها وكلف الثلاثة

بحراسته ثم تقدم نحو الساحل لمخاطبة الكسيوس ، وقد ناداه وقال له : يا الكسيوس ما الذي قصده بكلامك ، هلا تذكرت كيف نشلناك من الشقاء المقيم ، وكيف جعلناك سييدا وحاكما ، وتزوجناك امبراطورا ، فهلا تمسكت بوعودك ووفيت بعهودك وتايحت تنفيذ المتبقي عليك ؟

فأجابه الامبراطور ، ما فعلته فيه الكفاية ولن أفعل المزيد ولن أدفع شيئا .

فرد عليه الدوج : وتقول أنت هذا أيها الفتى الفرير التمس ، تقول لنا نحن الذين انتشلناك من هاوية التعاسة ، تأكد أننا سنردك اليها ثانية ، وانني متحديك ومذكرك بالوقت نفسه ، واعلم علم اليقين أنني سألحق بك من هذه الساعة فصاعدا كل ما بإمكانني من الأذى .

١٠٦ - وبعدما فرغ الدوج من مخاطبته هكذا ، تركه وعاد الي حيث اجتمع مع البارونات وكبار قادة الجيش ورجالات البنادق للنداول فيما بينهم والاتفاق حول ما سيقومون به ، وتبين للبنادق أن برودة الطقس تحول بينهم وبين نصب سلالهم وجسورهم ومجانيقهم فوق السفن ، فقد كان الموسم ما بين عيد جميع القديسين وعيد الميلاد .

وفيما هم في أزمتهم الخائفة هذه قام الامبراطور ورجاله الغدارون بحبك عمل خياني كبير ، حيث سحبوا عددا من المراكب الي المدينة أثناء الليل ، ثم شحنوها بالأخشاب الجافة تماما وصبوا عليها الزيوت ثم أنزلوها الي الماء وأوقدوا فيها النيران ، ومع منتصف الليل - وكانت هناك ريح عاصفة - سرح الأغريق السفن المتهبة ودفعوها باتجاه الأسطول الفرنسي ، وبالفعل ساقطت الريح هذه المراكب بشدة نحو هذا الأسطول .

ولاحظ البنادق ما يجري بالوقت المناسب ، فبادروا فورا الي

تحريك سفنهم جميعا ، وابتعدوا بها فكان أن حققوا بذلك نجاحا باهرا ، ونجا الأسطول الفرنجي ، وبرحمة من الرب لم يصب بأذى أذى .

١٠٧ - وعاود الأغريرق عملهم هذا بعد اسبوعين ، ومجددا ما أن شاهدتهم البنادقة حتى بادروا للدفاع عن أسطولهم ، وحالوا دون امتداد النيران اليه ، وبرحمة من الرب لم يصب البنادقة بخسارة تعتبر سوى أن النيران أصابت سفينة تجارية كانت راسية هناك فأحرقتها تماما .

١٠٨ - وتفشى في هذا الوقت الغلاء وانتشر في المعسكر حتى بات سعر زجاجة الخمر الواحدة اثنتي عشرة سوسية ، وبيعت البيضة ببذسين والدجاجة بعشرين سوسية ، ومع هذا لم يكن هناك شح بالخبز ، بل توفر بما كفى حاجة الجيش لفترة من الزمن .

١٠٩ - وفي أثناء ذلك الشتاء قام أهل القسطنطينية بتقوية دفاعات المدينة وبذلوا كل امكاناتهم في هذا السبيل ، فزادوا من ارتفاع أسوارهم وأبراجهم عما كانت عليه ، وشيدوا أبراجا من الخشب أقاموها فوق هذه الأبراج الحجرية ، وغطوها بألواح متينة وباللبد والجلود المدبوغة ، وبذلك لم يعودوا يخشون من سلاح سفن البنادقة ، فقد بات ارتفاع الأسوار ستين قدما ، وتجاوز ارتفاع الأبراج المائة ، ونشروا على الأسوار الفصيلة داخل البلد أربعين عرادة ومنجنيق ، وأقاموها في النقاط التي توقعوا أن تتعرض للهجوم ، وليس مدهشا انجازهم لهذا كله فقد امتلكوا ما يكفي من الوقت للقيام به .

١١٠ - وفيما هذه الاجراءات والاستعدادات تجري بدون تلوؤ ، اجتمع مرزوفلوس - وهو الذي كان الامبراطور قد حرره من السجن - بجماعات الأغريرق الذين كانوا يبغضون الامبراطور ، وراحوا يحيكون مؤامرة للإطاحة به والتخلص منه وإقامة امبراطور

جديد مكانه يخلصهم من الفرنجة الذين جاء بهم ، ورأى هؤلاء أن الامبراطور الكسيوس هو سبب البلاء وأنه ليس بقادر على دفعه ، وقال لهم مرزوفلوس : لو عهدتم بالأمر الي ونصبتموني امبراطورا فليسوف أخلصكم من الفرنجة ومن هذا الامبراطور وأنهى معاناتكم ، فأجابوه بأنهم سوف يتوجه امبراطورا بعدما يخلصهم من الفرنجة والامبراطور ، وبناء عليه تعهد لهم مرزوفلوس أنه سوف يخرج بهم من هذه الضائقة خلال اسبوع واحد ، وبناء عليه تعهدوا بتتويجه امبراطورا .

١١١- ولم يضع مرزوفلوس الوقت ، بل قاد مجموعة من الجند ، واقتحم بهم ليلا جناح الامبراطور ، مولاه الامبراطور الذي حرره من السجن ، فاعتقله وأمر بوضع حبل حول عنقه وعنق ابيه اسحق وشنقهما معا ، وبعدما مافرغ من عمله هذا ذهب الى شركائه بالمؤامرة فأخبرهم بما أنجز ، فقاموا معه وتوجه امبراطورا عليهم .

١١٢- وما أن توج مرزوفلوس امبراطورا حتى دوت صرخة عالية في المدينة : « انظروا ماذا حدث ، اغتال مرزوفلوس مولاه ، وتوج نفسه امبراطورا .. ثم ربطا أحدهم رساله الي ذشابه ورمها بقوسه الي داخل معسكر الحجاج فيها خبر مافعله مرزوفلوس ، وعندما وقف البارونات على الخبر وتيقنوا من صحته قال بعضهم : لتحل لعنة الرب على الذي يبالي بما حدث لالكسيوس أو يهتم به حيا أو ميتا ، وطبعوا قالوا هذا لأن الكسيوس لم يف بعهده للحجاج ، هذا وقال بعضهم الآخر : ان مسؤولية ماحدث لالكسيوس تقع على عاتقهم .

١١٣- ومالبت مرزوفلوس أن بعث برسالة الي كونت فلاندرز وكونت لويس والى الماركيز وبقية البارونات وكبار القادة ، أمرهم فيها بالرحيل فورا ومفادرة أرض بلاده ، وأعلمهم أنه قد بات هو الامبراطور ، وأنزهم بأنه سوف يفتك بهم ويقتلهم جميعا إن لم

يرحلوا خلال اسبوع من يومهم ذاك ، وعندما وقف البارونات على رسالة مرزوفلوس هذه دهشوا وقالوا : عجباً كيف يتجرأ هذا الذي غدر بمولاه وقتله خيانة تحت جناح الظلام أن يرسل إلينا مثل هذه الرسالة؟! فما كان منهم الا أن كتبوا إليه رسالة أنبوه فيها وأعلموه أنهم يتحدونه ، وتهددوه أنهم لن يرحلوا ، وسيشددون الحصار على المدينة ، وسيثأرون لاغتيال الكسيوس ممن غدر به ، وأنهم سيستولون على القسطنطينية مجدداً وعندما سيحصلون على أجورهم كاملة غير ناقصة حسب الاتفاق مع الكسيوس .

١١٤- وبعدما قرأ مرزوفلوس هذه الرسالة ، وجه أوامره إلى أهل المدينة بضرورة زيادة تحصينات الأسوار والأبراج قوة بتجهيزها بالمجانيق والعرادات حتى يمكن صد هجوم الفرنجة اذا قام ، فنفذوا ما أمرهم به ، وبذلك غدت الأسوار والأبراج أقوى مما كانت عليه من قبل وأشد منعة .

١١٥- وفي تلك الآونة التي تسلم فيها مرزوفلوس عرش الامبراطورية ، ازداد ضيق حال الفرنجة ، وكما ذكرت من قبل تعاضم شح المواد ، ومع هذا كانوا يعدون سفنهم ومعداتهم وأنفسهم للهجوم ، وفيما هم كذلك وصلتهم رسالة من يوحنا صاحب الاشيا ، طلب فيها من البارونات تتويجه ملكاً على الاشيا ، ووعدهم أنهم اذا فعلوا ذلك سيضع مملكته وأراضيه تحت تصرفهم ، وأنه سيأتي لنجدتهم والوقوف إلى جانبهم على رأس مائة ألف جندي ، وسيعمل معهم في سبيل الاستيلاء على القسطنطينية .

١١٦- وكانت الاشيا من الأراضي التابعة للامبراطور ، وكان يوحنا بالأصل جندياً من جنود الامبراطور ثم تولى رعاية واحد من مراعي الخيول الامبراطورية ، بحيث كان اذا طلب منه الامبراطور ستين فرساً أو مائة بعث بها إليه ، واعتاد على أن يزور البلاط كل سنة مرة وذلك حتى ساءت علاقته به ، ونجم ذلك عن اهانة كبيرة تلقاها في القصر ، فقد حدث في أيام زيارته الأخيرة أن اقترب أحد

خصيان الامبراطور بحقه جرما كبيرا حين ضربة بالسوط على وجهه ، ولهذا غضب يوحنا غضبا شديدا ، وشعر بالمرارة لذلك ترك القصر وتخلي عن خدمة الامبراطور ، غضبا لنفسه للاهانة التي لحقته ، وعاد الى الاشيا وهي بلاد حصينة تحيط بها الجبال من كل جانب الى حد أنه لا يستطيع أحد الدخول اليها أو الخروج منها الا عبر ممر ضيق .

١١٧- وعندما حل يوحنا في بلاد الاشيا سعى الى ضم كبار رجالاتها اليه ، وسلك مسلك الزعيم القوي فكان يتألف الناس ويمنحهم الأعطيات ، لذلك سرعان مادانت له تلك البلاد وخضع له سكانها واعترفوا به سيذا عليهم ، فلما تحقق له ذلك ذهب الى جماعات الكومان وسواهم فتحالف معهم فانضموا الى صفوفه ودانوا له بالطاعة .

١١٨- وتقع بلاد الكومان على حدود الاشيا وسأحدثك عن هؤلاء الكومان وأروي لك أخبارهم :

الكومان شعب بدائي الحياة لايعرف الزراعة والفلاحة والحصاد ، ولايقطن أفراده في البيوت أو الأكواخ بل في خيم من اللباد ، وعماد غذائهم اللبن والجبن واللحوم ، ويكثر الذباب والبعوض في معسكراتهم أثناء الصيف كثرة ترغمهم على ملازمة خيمهم فلا يخرجون منها قبل حلول موسم البرد والشتاء ، وفي ذلك الموسم يخرجون من بلادهم للقيام بأعمال الغارة على سواهم .

١١٩- وأنا مخبرك الآن عن أعمالهم :

وامتلك كل واحد من الكومان عددا من الخيول تصل الى عشرة رؤوس أو اثني عشر رأسا ، وهم يحسنون تدريبها ، ويأخذونها معهم في حلهم وترحالهم وفي أوقات غزواتهم ، وأثناء السفر لايتوقفون عن الركض ليلا ونهارا ، ويسرعون حتى أنهم يقطعون في